الفصل الأول

ظواهر نفسية واجتماعية عامة

● التحول الاجتماعى يتبع التحول النفسى ـ اختلاف المجتمعات فى الكفر والايمان ضرورة انسانية ـ اختلاف الشعوب سبب للتعارف بينها ـ تفاضل الناس فى المجتمع . فى الأرزاق وفى مستوى الانسانية ظاهرة طبيعية ـ الحرب ضرورة انسانية ـ الالحاد ظاهرة من ظواهر الحياة الانسانية ـ سقوط المجتمع يتبع حرمان أصحاب الحاجة ـ العبث الجماعى جريمة عظمى فى حق المجتمع ـ المجتمعات ينتهى امرها الى أصحاب المستوى الانسانى ـ متع الدنيا لا يحرم منها غير المؤمن بالله ـ من يؤثر الدنيا على دين الله يترقب نهايته ـ المنفعية فى عبادة الله طريق الخسران ـ التوجه لغير الله دليل الضعف ـ الارتداد عن دين الله لا يشكل حرباً على الدين ـ الخروج عن دين الله لا يصيب دعوة الله بسوء ـ غير المؤمن بالله لا يقدم على القتال الا عند التفوق فى الاعداد والتحصين ـ اعلان الحق تعبير عن قوة الايمان ـ قوة الايمان كفيلة بتعويض النقص المادى فى مواجهة الأعداء ـ قوة الايمان فى عدم الاستسلام للصعاب والأزمات ـ التطبيق العملى هو محك الايمان ـ التجاء الانسان الى الله عند المحنة ، والتولى عنه عند النعمة ـ المستضعفون فى الأرض يؤخذون على استسلامهم للطغيان ـ الله يمهل ، ولا يهمل .

obeikandl.com

obeikandl.com

ظواهر نفسية واجتماعية عامة

● **التحول الاجتماعى يتبع التحول النفسى :**

.. إن القرآن الكريم إذ يقول : **« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »** (١) .. يرى أن التحول النفسى مقدمة ضرورية للتغير الاجتماعى ، فالإسلام نفسه دعوة إلى التغيير النفسى أولا من عادات المجتمع المادى أو الجاهلى .. إلى عادات المجتمع الإنسانى : هو دعوة إلى التحول من مظاهر اجتماعية معينة .. إلى مظاهر أخرى مقابلة لها تماماً ، عن طريق التبصير بأخطار المظاهر الاجتماعية الأولى .

فإذا كان من عادات المجتمع المادى أو الجاهلى : الإمساك عن الإنفاق على صاحب الحاجة ، ويتجلى ذلك فيما يذكره الله سبحانه عن الماديين : **« واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه »** (٢) .. فإن دعوة الإسلام تتجه إلى تغيير هذه العادة فى نفوس المؤمنين بالله إلى أن يصبح الإنفاق على أصحاب الحاجة عادة بديلة فى نفوسهم ، بحيث يستطيعون الإنفاق عليهم عن محبة ورضاء نفس . كما يصوره القرآن كصفة من صفات المؤمنين فى قوله : **« ويطعمون الطعام على حبه** (أى حب الإطعام) **مسكينا ويتيما وأسيرا . انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً »** (٣) ..

فعادة الماديين والجاهليين هى البخل والشح .. هى الأنانية وعدم الاعتراف بالآخرين ، بينما عادة الإنسانيين أو المؤمنين يجب أن تكون المشاركة بالمال ، والقوة ، والعلم والجاه .. يجب أن ترتكز على التعاطف ، والمساندة من قوى لضعيف ، ومن صحيح لمريض ، ومن صاحب ثراء إلى صاحب حاجة ، ومن صاحب علم إلى فقير إليه . وهكذا ...

---

(١) الرعد : ١١ (٢) يس : ٤٧

(٣) الانسان : ٨ ، ٩

ودعوة الإسلام إلى التحول من عادات أو تقاليد خاصة سائدة فى المجتمع المادى .. إلى عادات أخرى وتقاليد أخرى يجب أن تسود ، وهى العادات الإنسانية ، أى التى تمثل المستوى الإنسانى ، تقرن دائماً بتوضيح المخاطر على المجتمع المادى من شحه وبخله : فمثلا فيما يحكيه القرآن هنا عن عادة الجاهليين أو الماديين من سخريتهم من طلب الإنفاق منهم على أصحاب الحاجة ، عندما يقولون : « **أنطعم من لو يشاء الله أطعمه** » .. تعقب الآية التى تحكى هذه السخرية بقول الله تعالى : « **ان أنتم الا فى ضلال مبين** » .. أى فى حيرة واضحة . لأنهم لا يدركون آثار شحهم وبخلهم فى مجتمعهم . وهى آثار ستنتهى حتما بتدمير الأشحاء والبخلاء وتغيير المجتمع كله ، بسبب تفشى الأحقاد وإمساك منفعة المال العامة عمن لا يملكون وهم أصحاب حاجة ملحة .

.. والتغيير النفسى الذى يعتبر ضرورة تسبق التغيير الاجتماعى لا يحدث فى نظر الإسلام بإلزام أو إكراه عن طريق السلطة الخارجية . فالحياة النفسية يؤثر فيها الاقناع والمنطق . ولكن الإلزام أو الإكراه قد يسبب عناداً مضاداً . فإن لم يبد هذا العناد فلأنه قد غلف بالنفاق والتهرب من الالتزام .

والخطوات التى يتخذها الإسلام للتغيير النفسى تتمثل :

أولا ــ فى توضيح الأخطار التى تترتب على العادات والتقاليد التى تسود المجتمع المادى أو الجاهلى .

ثانياً ــ بعد فترة من التوضيح : النهى عنها .

ثالثاً ــ الترغيب فى العادات الأخرى البديلة التى تصور المستوى الإنسانى .

رابعاً ــ بعد فترة من الترغيب : الأمر باتباع هذه العادات المرغوبة .. وهنا يتم التحول ، إذا كان الإيمان صادقاً :

فمثلا يرغب فى الإنفاق ، كما تذكر سورة الحديد فى قول الله تعالى : « **آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير** » (٤) ..

---

(٤) الحديد : ٧

وفى قوله فى السورة نفسها أيضاً : « **وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض** » (٥) ..

فمع كون القرآن يشير فى الآية الأولى إلى أن المال مستخلف عليه من الله ، والمالك الحقيقى له هو الله تعالى ، ويشير فى الآية الثانية صراحة إلى أن الله هو الذى يؤول إليه كل ما فى الدنيا : يعد بالأجر الكبير والجزاء الأوفى لمن أنفق فى سبيل الله وسد حاجة المحتاج معه فى أمته .

وكان يكفى فى الإقناع بالإنفاق أن يذكر أن المالكين للمال مفوضون فيه فقط . ويجب أن يسيروا إذن فى إنمائه وفى صرفه طبقاً لتعاليم المالك الحقيقى لماله ، ولكن ذكر الأجر الكبير والجزاء الأوفى للمنفق هو حث له وترغيب فى أن ينفق بحريته ومشيئته . فيحفظ عليه إنسانيته التى يلتزم عن طريقها ، ولا يلزم بأمر خارج عنها .

وهكذا : فالإقناع هو العامل فى التحول النفسى والاجتماعى ، وليس الإكراه والإلزام . وهكذا : التحول الاجتماعى لا يتم إلا بعد تحول نفسى .

* * *

● **اختلاف المجتمعات فى الكفر والايمان ضرورة انسانية :**

.. إن حياة الإنسان على الأرض تمثل تجربة « يمر بها » وهى تجربة يتضح فيها موقفه من النعم والمتع المادية التى أحيطت بها على هذه الأرض . وهى تساوق تلك النعم التى وضع أمامها آدم وحواء فى الجنة قبل نزولهما إلى الأرض ، والتى سيعيشها الإنسان نفسه فيما بعد هذه التجربة فى الحياة الأخرى ، إن كان موقفه فى دنياه هو موقف الممتثل لطاعة الله .

والإنسان طالما هو موجود على هذه الأرض فهو بأجياله العديدة المتلاحقة يعيش فى نفس التجربة إلى يوم أن يقضى الله بإنهائها ، وبانتقال الإنسان إلى مرحلة الجزاء التالية وهى مرحلة العذاب أو النعيم . أو مرحلة النار أو الجنة .

---

(٥) الحديد : ١٠

وكانت رسالة الله لآدم وحواء فى الجنة ، ثم رسالته على الأرض إلى الأجيال المتعاقبة منهما : تدعو الإنسان فقط إلى عدم الإسراف فى هذه المتع أو فى هذه النعم .

إذ أن الإسراف كما هو مصدر ضرر للمسرف .. هو مصدر ضرر أيضا لمن حرم منها :

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة (اى لهم) **يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون »** (٦) ..

والممتثل لطاعة الله ــ أو المؤمن به ــ هو المكافح أو المجاهد فى سبيل عدم الإسراف .. هو المتحكم فى شهوته وفى هواه .. هو المسيطر بصومه على شهوة البطن ، والفرج ، واللسان .. وبإخراج الزكاة على شهوة الملك والمال .. وبالجهاد بالنفس وبالأولاد على الأنانية والعصبية .

وغير الممتثل لطاعة الله ــ أو الكافر به ــ هو الذى يترك الأمر لشهوته ولهواه .. هو الذى لا يبذل جهداً فى التحكم فى نزوات النفس .. هو الذى لا يفرق بين الحلال والحرام ، طالما فى أى منهما استمتاع للبطن وللفرج .. هو الذى لا يعرف الاعتداء على حرمات الآخرين فى أعراضهم ، وفى أموالهم ، وفى نفوسهم ، ولا يميز هذا الاعتداء عن الالتزام بما لا يضر الآخرين ولا يؤذيهم ولو إيذاء معنوياً .

.. وبرسالة الله انقسم الناس إلى طائعين وغير طائعين .. وإلى مؤمنين وكافرين .. وإلى إنسانيين وماديين .. وإلى موحدين ووثنيين :

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه » (٧) ..

---

(٦) الأعراف : ٣١ ــ ٣٣ (٧) البقرة : ٢١٣

وسيستمر هذا الاختلاف بين النـاس : « **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين** » (٨) .. سيستمر المؤمنون والكافرون .. ويستمر الأنانيون والماديون الجاهليون . حتى يأتى الوقت المعـلوم الذى ينتقل فيه الناس من تجربة هذه الحياة الأرضية .. إلى حياة الجزاء فى الآخرة .. ستستمر رسالة الله ، ورسـالة إبليس معـاً إلى يوم البعث : « **قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . الا عبادك منهم المخلصين** » (٩) ..

وهكذا : لا يأس لمجتمع مؤمن مع وجود طغيان مجتمع مادى . فالإيمان بالله لا يخبو ضوؤه إطلاقا . وعلى المؤمنين أن يتمسكوا بإيمانهم . فنصر الله لهم مرهون بقوة الإيمان والصبر على الابتلاء .

* * *

● **اختلاف الشعوب يدعو للتعارف بينها :**

.. هى سنة الحياة البشرية : أن يلتقى المتقابلان فى الوجود ، وأن يكونا وحدة فيما بينهما على أساس الميل الطبيعى فى لقاء أحدهما بالآخر ، ولكى يتم الانسجام بين وحدات الوجود الإنسانى خلق الله بينها الذكر والأنثى ، أى خلق بينها التقابل فى التكوين كدافع إلى التقارب ، كما خلق بين كل مجموعة منها وأخرى ما يحرك إلى اللقاء فيما بينها .

فعامل التقابل بين الأفراد من بنى الإنسان ـ فى الذكورة والأنوثة ـ وهو ذاته عامل التقارب بينها . والاختلاف بين المجموعات أو الشـعوب فى أصـلها وعرفهـا هو نفسـه العـامل الدافـع على التقـارب لبعضـها البعض . يقـول الله فى شـأن هـذه الظـاهرة أو فى هـذا المبـدأ : « **يا أيهـا النـاس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنـاكم شـعوبا وقبـائل لتعارفوا** » (١٠) . فتكشف الآية أن غاية التقابل بين الذكورة والأنوثة فى خلق الإنسان ، وبين الشعوب والقبائل فى المجموعات البشرية ، هى التقارب والتعارف وليست النفرة والخصومة .. هى اللقاء فى وئام وانسجام . وهذا

---

(٨) هود : ١١٨
(٩) سورة ص : ٧٩ ـ ٨٣
(١٠) الحجرات : ١٣

obeikandl.com

معناه : أن أفراد الإنسان لو كانوا جميعاً من الذكور ، أو جميعاً من الإناث لما كان هناك وئام وانسجام بينهم ، ولكانت الخصومة والنفرة هى السائدة فى العلاقات بينهم . وكذلك لو كان الناس جميعاً من شعب واحد أو قبيلة واحدة لكان أمر العلاقة عندئذ بين الأفراد هو هذا الأمر من النفرة وعدم الوئام ، وبالتالى لما قام مجتمع إنسانى تسود فيه روح الاطمئنان ، والمودة والرحمة بين الأفراد .

.. ونرى القرآن يجعل من الدلائل الدالة على الله سبحانه : أن خلق الموجودات بين الناس وفيما عدا الناس ، على أساس الزوجية ، أى على أساس التقابل والاختلاف بين أفراد النوع الواحد . يقول تعالى : **« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون »** (١١) .. كما نراه يجعل الهدف المباشر للزوجية أو للتقابل بين أفراد الإنسان ليس التعارف فقط ، وإنما الوصول بالتعارف إلى الترابط على تحقيق السلام والاستقرار ، والتعاون القائم على الرحمة والمودة ، مما يميز شأن المجتمع الإنسانى عن أن يكون مجتمع عدد وكم لا غير : **« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »** (١٢) ..

فالتضاد فى الحياة ليس عامل هدم . بل هو عامل بناء . والنقيض لا يلغى نقيضه فى الوجود ، إنما يخرج منه ، كما يتحول إليه : **« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون »** (١٣) ..

.. وإذن ليس هناك فضل ذاتى لأحد طرفى التقابل على الآخر .. ليس هناك فضل للذكر على الأنثى ، ولا للأنثى فضل على الذكر . كما ليس هناك فضل لقبيلة على أخرى فى ذاتها ولا لشعب على شعب آخر فى ذاته ، والتقابل بين الطرفين يعطى فقط : أن وظيفته هى حملها على اللقاء والتقارب والتعارف .

أما الفضل إن وجد بين أفراد الإنسان ، أو بين القبائل والشعوب فهو

---

(١١) يس : ٣٦ ، ٣٧ (١٢) الروم : ٢١

(١٣) يس : ٣٧

يعود إلى المعانى الإنسانية التى قد تتوفر فى جانب من جانبى التقابل دون الجانب الآخر . فالرجل قد يفضل المرأة لا لأنه رجل وهى امرأة ، والمرأة قد تفضل الرجل لا لأنها امرأة وهو رجل ، ولكن لأن الفاضل منهما أكثر إنسانية فى سلوكه وتهذيبه . وكذلك الشأن فى تفضيل قبيلة على أخرى وشعب على آخر . فالمعانى الإنسانية هى التى يعود إليها وحدها فضل إنسان على آخر وفضل شعب على شعب ، وليست الفروق التى تعود إلى الجنس أو العرق . يقول الله فى التعقيب على توضيح الهدف من الزوجية فى الخلق : **« ان أكرمكم عند الله أتقاكم »** (١٤) .. (أى إن أقربكم وأفضلكم فى مقياس التفضيل عند الله : أكثركم تجنباً للانحراف فى السلوك الإنسانى ، وأبعدكم فى التهذيب فى معاملة بعضكم بعضاً) .

* * *

● **تفاضل الأفراد فى المجتمع فى الأرزاق وفى مستوى الانسانية ظاهرة طبيعية :**

.. ليس أفراد المجتمع متساوين ــ فى نظر القرآن ــ إلا فى الاعتبار الإنسانى ، ولذا يجب أن يوفر كل فرد للآخر هذا الاعتبار . وقد نهى الله عن انتقاص المؤمن للمؤمن والسخرية به فى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم (أى لا تعيبوا إخوانكم المؤمنين فأنتم إذ تعيبونهم تعيبون أنفسكم) **ولا تنابزوا بالألقاب ،** (أى لا يدعوا بعضكم بعضاً بما يكرهه من اللقب) **بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ،** (وأن سخرية بعضكم من بعض وانتقاص بعضكم لبعض .. ونداء بعضكم لبعض بما هو بغيض إليه من الألقاب : خروج عن خط الإيمان) **ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »** (١٥) .. (ومن لم يرجع عن ذلك وشبهه ــ وقد كان فى الجاهلية ــ يكون ظلم نفسه ، كما ظلم غيره) .

فالحرص على الاعتبار الإنسانى لجميع الأفراد سمة للمجتمع الإسلامى

---

(١٤) الحجرات : ١٣ (١٥) الحجرات : ١١

.. وهو المجتمع الذى تحول بالإيمان بالله عن الجاهلية والوثنية المادية فى أى وقت إلى الروابط الإنسانية فى صلات الأفراد بعضهم ببعض .

.. وما وراء الاعتبار الإنسانى : هناك تفاضل بين الأفراد ، فهناك تفاضل فى التقوى ودرجة الإيمان :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (١٦) ..

فالناس إن خلقوا جميعاً من أصل واحد وهو التقاء الذكورة مع الأنوثة فليسوا بعد ذلك متساوين فى الطاقات البشرية ، كما إذا انتسبوا إلى شعوب مختلفة وقبائل عديدة فليس اختلافهم فى الشعوب والقبائل بلازم أن يكون سبباً لأن ينكر بعضهم بعضاً . بل بالأحرى هو سبب لتعرف بعضهم على بعض وإذا كان اتخاذ الأصل فى خلق الإنسان لا يوجب التساوى فى الطاقات البشرية فكذلك الإيمان بالله لا يوجب التساوى فى الطاقات البشرية . فكذلك الإيمان بالله لا يوجب التساوى فى مستوياته ودرجاته . بل المؤمنون يتفاوتون فى مستوى الإيمان ويفضل بعضهم بعضاً فى درجته .

.. وكذلك يتفاوتون فى الأرزاق ويفضل بعضهم بعضاً درجات فيها . ولكن الهدف من هذا التفاوت هو ابتلاء الله لمن أنعم عليهم بها ، وليس لأن يستعلى أحدهم أو يطغى بما يتميز به من مال على الآخر :

« وهو الذى جعلكم خلائف الأرض (يخلف بعضكم بعضاً فى ملكية الأموال والتصرف فيها) **ورفع بعضكم فوق بعض** (أى فى الأرزاق وملك الأموال) **درجات** (أى جعلكم متفاوتين ومتفاضلين : يفضل بعضكم بعضاً فيما يملك من مال ويزيد فى ثرائه عن الآخرين) **ليبلوكم فى ما آتاكم ،** (أى والقصد من هذا التفاوت فى ملكية المال هو الابتلاء والاختبار فيما أعطى المالك من مال : هل سيتصرف فيه طبقاً لتوجيه الله فى كتابه فيخرج زكاته ، ولا يستخدمه فى إثم أو عبث ؟ هل سيشح فيه ويعبده من دون الله ؟ هل سيرى فى ملكية المال أنه مفوض فقط من جانب

---

(١٦) الحجرات : ١٣

الله : فى إنمائه وتثميره وصرفه ؟ هل سيرى أنه مستخلف عليه ووكيل فيه وليس بمالك أصيل له على الحقيقة) ان ربك سريع العقاب (لمن يخالف توجيه الله وعلى الأخص فى المال) وانه لغفور رحيم » (١٧) .. (لمن تاب والتزم بما أراده الله من تفضيل الناس على بعض فى الأرزاق والأموال) .

.. وهكذا : كان تفاضل الناس فى مستوى الإيمان .. وفى الأرزاق وملكية المال : ظاهرة طبيعية بين أفراد المجتمع لا يلغيها تساوى الناس فى كونهم جميعاً من ذكر وأنثى . الناس متساوون فى الاعتبار البشرى ، ولكنهم متفاوتون فى الطاقات والاستعدادات البشرية ، والتفاوت فى الطاقات والاستعدادات هو أساس التفاوت فى الإيمان ودرجات الملكية للمال .

* * *

● الحرب ضرورة بشرية :

.. قد يستضعف الأفراد فيعتدى عليهم فى صورة عديدة من صور الاعتداء .

وقد تستضعف الجماعات فيعتدى عليها فى الأنفس والأموال والكرامات .

وقد يسخر من القيم والمبادىء العليا فيعتدى عليها بالكبت ، والتحريف ، والتشويه والصد عنها بكل طريق .

وليس مطلوباً من الأفراد والجماعات أن يستسلموا للاعتداء ، وليس مطلوبا كذلك من المؤمنين بالقيم والمبادىء العليا فى حياة الإنسان : أن يرضوا أو يسكتوا على مواجهة الاعتداء على هذه القيم ورده .

وقد أودع فى فطرة الإنسان الميل إلى المقاتلة والمدافعة حفاظاً على الذات . ولكنه ميل يسترشد بحكمة العقل وتوجيه رسالة الله ، فليس ميلا

---

(١٧) الأنعام : ١٦٥

obeikandi.com

أعمى كما هو عند الحيوان ، يدفع إلى الاعتداء وليس لرفع الظلم ووقف التهديد به ، والوقاية منه .

.. وقد أذن القرآن فى توجيه الرسالة الإلهية للمؤمنين بأن يباشروا القتال ضد الأعداء عند تحقق واحد من أمرين :

الأمر الأول : عندما يعتدى عليهم منهم بسلب أموالهم أو بإخراجهم من ديارهم أو بالتربص بهم وإيذائهم . يقول تعالى : « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** » (أى أذن للمؤمنين بقتال أعدائهم بسبب ظلم هؤلاء الأعداء لهم بالاعتداء عليهم بالقتال وسلب الأموال والإخراج من الديار) **وأن الله على نصرهم لقدير** . (ونصر الله لهؤلاء المؤمنين على أعدائهم عندئذ أمر مؤكد ومفروغ منه فهو داخل فى قدرة الله ونافذ طبق إرادته) **الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله** » (١٨) .. (ولم يكن هناك من سبب فى اعتداء الأعداء على المؤمنين إلا لأن هؤلاء أعلنوا إيمانهم بالله وتمسكوا بالوحدة فى الألوهية مخالفين لهم فيما يعتقدون ويؤمنون) . ويدخل فى نطاق رد الاعتداء بالفعل : قتال الأعداء وقاية من عدوانهم وظلمهم .

والأمر الثانى : عندما يعتدى على دين الله والإيمان به فتنتهك بيوت الله أو تهدم ، أو تحرف رسالة الله فى أجلى صورة لها ، وهى تلك الصورة التى يعرضها آخر كتاب نزل من عند الله : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض** (أى ولولا مشروعية القتال وجوازه لرد الاعتداء ، ولولا إذن الله للمظلومين وهم المؤمنون بقتال الطاغين والمعتدين وهم الماديون والوثنيون) **لهدمت صوامع** (وهى منازل الرهبان) **وبيع** (وهى أماكن العبادة لدى النصارى) **وصلوات** (وهى كنائس اليهود) **ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً** ، (أى لم يبق مكان من أماكن العبادة) **ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** » (١٩) ..

وبمشروعية القتال عند الاعتداء أو للوقاية منه : على الأفراد

---

(١٨) الحج : ٣٩ ، ٤٠

(١٩) الحج : ٤٠ ، ٤١

والجماعات ، أو على دين الله والإيمان به ، ويقيم الإسلام هذه المشروعية على فطرة فى الإنسان ، وعلى ميل أعده الله فيه للحفاظ على الذات وبقاء النوع البشرى ، وهو الميل إلى المقاتلة .

وبتوجيه القرآن لمشروعية القتال وبروز الأهداف التى ينبغى على الإنسان ان يحافظ عليها ولو بالقتال : وهى حياة الناس وما فيها من حرمات الأنفس والأموال والديار ، ودين الله وما يتصل به من أمكنة العبادة وكتاب الله .

وليس الاعتداء على دين الله إذن بأقل من الاعتداء على حياة الناس وأموالهم وديارهم ، فى وجوب صده والوقوف فى طريقه ، ولو كانت الأرواح هى السبيل إلى ذلك : **« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن »** (٢٠) ..

* * *

● **الالحاد ظاهرة من ظواهر الحياة الانسانية :**

الملحدون هم الذين يكفرون برسالة الله فى دينه .. ويؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، أى يفضلون الدنيا ومتعها المادية على السلوك السوى للإنسان فيها .. وينكرون الحياة الآخرة ويصدون عن سبيل الله ، لا بالإعراض عنها فحسب ، وإنما بحمل الآخرين على التشكك فيها ، وبدعواهم عدم جدواها وصلاحيتها وبرغبتهم فى أن تبدو معوجة غير مستقيمة وغير نافعة **« وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، أولئك فى ضلال بعيد »** (٢١) ..

وظاهرة الإنكار لرسالة الله ، وتحدى صلاحيتها فى حياة الإنسان من أجل أنها ظاهرة تصاحب الطبيعة البشرية فى أى جيل ، توجد فى نفر قليل أو كثير ، وتبدو أحياناً بدواً واضحاً ، وأحياناً آخرى بدواً مقنعا . ولكنها لا تختفى إطلاقاً من حياة الناس . لأن هداية الله واتباعها بعد الإيمان بها

---

(٢٠) التوبة : ١١١ (٢١) ابراهيم : ٢ ، ٣

إذا كانت من وظيفة الدعوة لدين الله ، فهوى النفس وسيطرته على اتجاه الإنسان فى حياته من وظيفة الشيطان أو النفس الأمارة بالسوء ، وهوى النفس لا يدفع إلا إلى الانحراف والاعتداء فى سبيل ما تطلب النفس من رغبات . وفى تبرير الطريق إلى تحقيق الرغبات تنكر النفس الأمارة بالسوء . هداية الله وتقف دون الإيمان بالله ، وتسخر من الاستقامة التى تدعو إليها تلك الهداية .

وهناك إذن بين النفوس البشرية فى هذه الحياة الدنيا : نفس مطمئنة إلى هداية الله ، تقف عليها ، وتسلك طريقها .. ونفس أخرى أمارة بالسوء متمردة على تلك الهداية ، تكفر بها وتعارض سبيلها . وهذا الوضع بين النوعين من النفوس مستمر إلى قيام الساعة : « **ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه** (أى فى شك من القرآن كآخر رسالة لله جل شأنه) **حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم . الملك يومئذ لله** » (٢٢) .. ويستمر شك هؤلاء فى القرآن إلى أن يفاجأوا بقيام الساعة ، أو يحل بهم العذاب فى يوم الملك فيه لله وحده وهو يوم البعث والنشور) .

والمؤمن بالله إذن لا ييأس عندما يرى الإلحاد قد انتشر أو قوى سنده ، فإنه مهما قوى ساعده لا يميت الإيمان فى نفس القلة المؤمنة آنئذ ، ولايذهب به إطلاقاً . وإنما قد تكون قوته فقط فى إرهاب المؤمنين . وصدق الله العظيم حين يتحدى إبليس فى أن يكون له سلطان على عباد الله المخلصين ، فيحولهم من الإيمان إلى الكفر بقوله : « **قال** (أى الله جل جلاله للشيطان) **اذهب فمن تبعك منهم** (أى من أولاد آدم) فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً . **واستفزز** (أى استخف) **من استطعت منهم بصوتك** (أى بدعايتك ووسائل إعلامك) **وأجلب عليهم بخيلك ورجلك** (أى واحشد عليهم قوتك المادية فى أنواعها المختلفة) وشاركهم فى الأموال والأولاد (فتقيدهم من التصرف فى أموالهم ، وتحد من حريتهم فى توجيه أولادهم ، أملا فى أن يخضعوا لك ويتحولوا إلى أعوانك) **وعدهم** ، (**وقدم لهم من وعود الإغراء** ما تشاء فى جنات لهم على هذه الأرض سهلة المنال ، فيها فاكهة كثيرة ،

---

(٢٢) الحج : ٥٥ ، ٥٦

لا مقطوعة ولا ممنوعة) **وما يعدهم الشيطان الا غرورا . ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا** » (٢٣) ..

فقوى الشر أو النفوس الأمارة بالسوء مهما سلطت على المؤمنين من ألوان تحدياتها : من وسائل الإعلام .. إلى حشد جميع قوات الإرهاب ، إلى انتزاع الأموال من أصحابها ، والأولاد من آبائهم وأسرهم ، إلى الوعود المغرية الخادعة بالدنيا ومتعها المادية : فإنها لا تنزع الإيمان بالله ممن سماهم الله عباده .. وهم الذين يعيشون للإيمان ، وفى سبيله .

وهكذا : الإيمان بالله باق ، مهما اشتد ظلام الإلحاد ، والصبر وحده هو الذى سيحول ظلام الإلحاد إلى نور الإيمان يوماً ما .

وهكذا : الإلحاد مهما اشتد فإنه لا يطمس معالم الإيمان ، ولا يخيفه ولا يرهبه .

* * *

● سقوط المجتمع يتبع حرمان أصحاب الحاجة :

.. إن استخلاف الله للإنسان على المال فى هذه الأرض ليس معناه قصر الإنفاق من المال على المالك له وحده ، وإنما معناه تفويضه فى إدارته وإنمائه ، على أن تكون ثمرته بينه وبين أصحاب الحاجة معه فى مجتمعه ، ولذا كان لهؤلاء حق فى المال الخاص ، وهو حق الانتفاع بثمرته وفائدته ، تغطية لحاجاتهم . ويستوفون هذا الحق منه فى الوقت الذى يحين فيه للمالك أن يقطف ثمرته ويأكل منها :

« **كلوا من ثمره اذا أثمر** (فيطلب لمن تحت أيديهم الأموال لإنمائها وتثميرها من الملاك والمستخلفين عليها من الله جل جلاله أن يباشروا الانتفاع بثمرتها على الوجه الذى يرونه) وآتوا حقه يوم حصاده ، (وإذ يطلب من الملاك مباشرة الانتفاع بثمرة الأموال التى يملكونها : فإنه فى الوقت نفسه يطلب إليهم أيضاً : أن يؤدوا حق أصحاب الحاجة من هذه الثمرة ، رغم أنهم لا يشاركون فى ملكيتها .. وأن يؤدوه من غير تأخير لهم ، فى الوقت الذى

---

(٢٣) الاسراء: ٦٣ ـ ٦٥

يصبح صالحاً للانتفاع بثمرة أموالهم وهو وقت حصاده ، ويطلق على نصيب أصحاب الحاجة من ثمرة الأموال المملوكة لغيرهم : حقاً ، للإفادة بأن أصحاب الحاجة لا يقلون إلى مدى الانتفاع بثمرة الأموال عن المالكين لها) ولا **تسرفوا** ، (أى فى الأكل منها ، وبذلك تبددونها فلا يبقى منها شىء لأصحاب الحاجة ، أو لا يبقى منها إلا القليل الذى لا يفيد) **انه لا يحب المسرفين** » (٢٤) ..

فأمرت الآية بشيئين .. ونهت عن ثالث .. أما ما أمرت به فهو :

أولا : أن المالكين للأموال : لهم حق استثمارها ، والانتفاع بثمرتها .

وثانياً : أن عليهم أن يخرجوا من ثمرتها إذا حل وقتها من غير إرجاء : حق أصحاب الحاجة ليكون انتفاعهم به مساوقا فى الوقت لانتفاع المالكين أنفسهم . وحق أصحاب الحاجة هو ما يعرف بالزكاة أو بالإنفاق لوجه الله .

وأما ما نهت عنه فهو :

ألا يبدد الملاك ثمرة أموالهم فى الترف والعبث وأوجه الإنفاق الخاصة التى تعود على المالك بالضرر ، كما تعود على صاحب الحاجة بزيادة الحرمان ويسمى هذا التبديد بالإسراف .

ولم يكتف القرآن بتسمية نصيب أصحاب الحاجة فى ثمرة الأموال الخاصة : حقاً ، لتأكيد مشروعيته ووجوب أدائه ، بل ينذر الأثرياء الذين يملكون الأموال الخاصة ويبخلون بثمرتها فلا يخرجون منها حق أصحاب الحاجة ، أو يسرفون فى إنفاقها فلا يبقى لهم شىء منها : بوجوب تغييرهم وإحلال غيرهم محلهم ، فى ملكية هذه الأموال وتثميرها ، ممن يحافظون على حقوق الآخرين فى ثمرة المال ، وإن كانوا لا يملكون فيه ، يقول تعالى :

« **ها انتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله** (والانفاق فى سبيل الله هو إعطاء المحرومين حقهم فى ثمرة الأموال المملوكة لغيرهم) **فمنكم من يبخل** ، (أى فلا يؤدى هذا الحق) **ومن يبخل فانما يبخل**

---

(٢٤) الأنعام : ١٤١

عن نفسه ، (أى أن أثر بخله سيعود عليه نفسه ، وهو تقويض مجتمع الأغنياء البخلاء وإقامة مجتمع بديل يؤدى فيه الغنى حق المحروم والفقير وهو المجتمع الإنسانى) والله الغنى وأنتم الفقراء ، (**ويجب أن تعلموا** : أنكم بأموالكم فقراء إلى الله ، إذ الله وحده صاحب الغنى .. لأن غناه بذاته) **وان تتولوا** (أى تنصرفوا عن الإنفاق المطلوب ولا تسمعوا لهذا الإنذار الإلهى) **يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** » (٢٥) .. (فى البخل . أى لا يكونوا كما كنتم ماديين . وإنما يكونون إنسانيين ، تحكمهم الروابط الإنسانية وحدها ، وهى التعاون .. والتواد .. والتآخى .

وهكذا : حق المحروم فى مال المالك حق إلهى .. لا يسقط إطلاقا وإنما يسقط من يشح فيه من المالكين .. ويبقى الله صاحب الملك والتدبير .

* * *

● **العبث الجماعى جريمة عظمى فى حق المجتمع :**

.. إن أهم ما يحفظ على الأمة تماسكها هو ما تؤمن به من قيم ومثل عليا . لأن مجتمعها أساساً قام على هذه القيم والمثل . ولذا تجب وقايتها من العبث أو التهديد به ، وأسلوب الوقاية يختلف باختلاف المباشر للعبث ، فإن باشرته مجموعة متفقة فيما بينها كان خطرها أكبر وكان جرمها واضحاً فى حق قيام المجتمع وبقائه متماسكا . ومن أجل ذلك نجد القرآن الكريم ينصح بمقابلة مثل هذه المجموعة الهادمة بالاستئصال أو بإبعادها تماماً من المجتمع يقول تعالى : « **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله** (بتحريف ما لله وللرسول ، أو بالسخرية منه ، أو بالصد عنه ودعوة الناس إلى تركه وعدم الإيمان به ، أو بتوجيه الناس إلى الإلحاد وتزيين الجاهلية فى نفوس الشباب منهم) **ويسعون فى الأرض فساداً** (وبذلك يخلقون جواً غير مستقر فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، ويشيعون الاعتداء على حرمات الآخرين فى أموالهم وأعراضهم ، ومساكنهم) **أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض** » ..

---

(٢٥) محمد : ٣٨

فأية صورة هنا من صور المقابلة للعبث الجماعى بالقتل ، أو التصليب ، أو تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ، أو النفى من أرض المجتمع ـ كفيلة بإبعاد الاضطراب والفساد فعلا ، أو بابعاد التهديد به . وفى الوقت نفسه أية صورة من هذه الصور هى إعلان عن عدم وفائهم وولائهم فى الحياة الدنيا لمجتمعهم ولمبادئه : « **ذلك لهم خزى فى الدنيا** ، (هذا بالإضافة إلى ما ينتظرهم فى الآخرة من عذاب لا يحد كنهه) : **ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** » (٢٦) ..

والجزاء على العبث الجماعى على هذا النحو يعتبر ضرورة اجتماعية للابقاء على وحدة المجتمع وبقائه صفاً واحداً فى مواجهة أعدائه .

وربما يقال : **إن الإسلام بتحديد هذا الجزاء الكبير يكبت حرية الرأى** والعقيدة . ولكن فى واقع الأمر الإسلام لا يتجه بهذا الجزاء لكبت حرية الرأى . وإنما يتجه به إلى الحفاظ على حرية الاعتقاد للآخرين الذين لا يشاركون فى هذا العبث الجماعى ، وعلى حقهم فى ممارسة ما يعتقدونه حسب إيمانهم والتزامهم بنتائجه .

على أن الإلحاد أو محاربة رسالة الله ودعوة الرسول عليه الصلاة والسلام وإشاعة البلبلة والاضطراب عن طريق ذلك : **ليس تعبيراً عن رأى ، وإنما** هو إنطلاق وفوضى ، ومحاولة لتقويض المجتمع أو إضعافه على الأقل ، وحمله على قبول التبعية لأجنبى عنه هو عدو له فى حقيقة الأمر . ومحاولة تقويض المجتمع بالسخرية من قيمه العليا التى يؤمن بها ، وبالتشكيك فى المبادىء التى هى أساس تماسكه وبقائه إن لم تقابل بصورة من صور الجزاء التى حددتها الآية هنا فإنها ستؤدى إلى حرب أهلية تدفع الأمة ثمنها ، من التمزق والوقوع تحت سلطة سفك الدماء والتعذيب والتشريد لأولئكم الذين كانت جريمتهم أن قالوا : ربنا الله .

والإسلام يقبل الخلاف فى الرأى داخل إطار المبادىء العامة التى رسمت فى رسالة الله فى القرآن والسنة الصحيحة . ولكن إن أدى الخلاف إلى نزاع أو مخاصمة فى الأمة فيوجب على المختلفين جميعاً مراجعة كتاب الله وسنة رسوله :

---

(٢٦) المائدة : ٣٣

« **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ،** (أى إن كنتم قد تحولتم عن الجاهلية والمادية) **ذلك خير وأحسن تأويلا** » (٢٧) ..

إن الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فساداً ليسوا أفراداً لا تربط بينهم صلة إلا الاتجاه إلى الالحاد فرادى وصدفة . وإنما هم مجموعة تتكون قصداً وتستهدف **محاربة دين الله والسعى بالفساد فى أرض** الأمة ومجتمعها .والقصد من محاربة دين الله بأى أسلوب ، وإشاعة العبث فى الأمة عن أى طريق هو عماد جريمتهم الاجتماعية . ولذلك يستحقون : أن يقتلوا ، أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض .

* * *

● **المجتمعات ينتهى امرها الى أصحاب المستوى الانسانى :**

الرسل جميعاً هم أصحاب دعوة إلى الإنسانية . أى أصحاب دعوة إلى إحلال المبادىء الإنسانية فى الروابط بين الأفراد داخل المجتمع الواحد ، وبين المجتمعات بعضها مع بعض محل المبادلات المادية والمنفعية والمصلحية وحدها التى ترتكز على الأنانية .

إذ العلاقات بين أفراد الإنسان أو بين المجتمعات الإنسانية ، إما أن يغلب عليها التواد ، والتعاون ، والسلام ، وعدم القلق والاضطراب ، بجانب ما هنالك من تبادل المنافع ، ولكن فى ظل المبادىء الإنسانية . ومثل هذه العلاقات تدعو إليها رسالة الرسل جميعاً . ومن هنا كان الرسل حملة السلام إلى الإنسانية ، وكان دين الله هو الإسلام . وإما أن تسيطر عليها المنفعة أو الأنانية وحدها ، فالقوى فى علاقته بالضعيف ، والكبير فى صلته بالصغير ، ينشد المصلحة الخاصة به وحدها ، ولوتضيع فى سبيلها مصلحة الضعيف أو الصغير . وهنا يسود الاستعمار فى أشكاله المختلفة بين الشعوب ، ويسود أكل مال اليتيم والضعيف فى صورة ما بالباطل فى المجتمع الواحد فى غير رحمة أو شفقة .

---

(٢٧) النساء : ٥٩

وقد أوحى الله إلى الرسل جميعاً باعتبار أنهم أصحاب دعوة إنسانية بهذا المضمون : أوحى إليهم بأن يهلك المعارضين لهم ، وهم الظالمون أو الآكلون أموال الناس بالباطل فى المجتمعات البشرية ، وبأن يسكنهم هم الأرض من بعدهم . ويحكى القرآن الكريم وعد الله هذا فى قوله تعالى: « **فأوحى اليهم** (إلى الرسل) **ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم** (أى الرسل وأصحاب الدعوة إلى الله بعدهم) **الأرض من بعدهم** » (٢٨) .. ثم يشير القرآن إلى أن هذا الوعد قد سجل فى الزبور من كتب الرسل السابقين ، كما سجل فى القرآن الآن : « **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر** (وهو القرآن) : أن الأرض يرثها عبادى الصالحون (٢٩) .. أما تسجيله فى القرآن فتقصه سورة النور فى قول الله تعالى :

« **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً** » (٣٠) ..

ويقصد القرآن بالذين آمنوا وعملوا الصالحات : الإنسانيين ، وهم الذين يقيمون علاقتهم بالآخرين على أساس إنسانى أولا ، من المساواة فى الاعتبار البشرى ، وفى الحقوق الإنسانية فى البقاء ، والعمل ، والحياة الإنسانية الكريمة الحرة . ويقصد بالظالمين : الذين تتمكن منهم النزعة المادية الخالصة التى لا تنطوى على رحمة بالضعفاء ولا بالصغار .. أولئكم الذين يعيشون على حساب حياة غيرهم ، أو على حساب كرامتهم وحقهم فى الوجود ، بأى صورة وبأى أسلوب .

والله إذ يعد بإهلاك الظالمين يعد فى الواقع بأمر موجود قائم بالفعل ، ولكنه يظهر عندما يصل فقط إلى نهايته . فالأفراد ، أو المجتمعات أصحاب النزعة المادية لابد أن يخاصم بعضها بعضا ، وأن يقاتل بعضها بعضا ، وأن يحارب بعضها بعضا . فإن لم تغير حرب واحدة نزعتهم المادية الأنانية تلتها حرب ثانية فثالثة .. وهلم جرا . إلى أن تفنى هذه النزعة أو تكبت ولو إلى حين ، ويحل محلها الاتجاه الإنسانى بين الأفراد والجماعات . فإذا ضعفت

---

(٢٨) ابراهيم : ١٣ ، ١٤ (٢٩) الانبياء : ١٠٥

(٣٠) النور : ٥٥

هذه الاتجاهات بعد ذلك وقويت النزعة المادية : فمعنى ذلك وجـود روح الخصومة والقتال والحرب . هكذا يدور الأمر بين اتجاه إنسانى ونزعـة مادية .. يدور الأمر بين تعاون وتواد وطمأنينة من جهة ، وقلق واضطراب وخصومة وحرب من جهة أخرى . وتلك سنة الله فى الوجود الإنسانى إلى يوم البعث ، وسنته كذلك فى أن يتقوض مجتمع المادية ليحل محله مجتمع الروحية أو المجتمع الإنسانى .

* * *

● **متع الدنيا لا يحرم منها من لا يؤمن بالله :**

كثير من الناس يعتقد أو يتصور : أن الإيمـان بالله سبب فى فيض الله من نعمه على المؤمنين به .. وبالتالى أن من لم يؤمن بالله لا سبيل له إلى متع الدنيا ، أو ينبغى أن تسد عليه منافذ المتع فيها .

ولكن فى رأى القرآن ليست هناك صلة وثيقة أو ضعيفة بين الرزق فى الدنيا ، كثرة وقلة ، من جانب ، والإيمان أو عدم الإيمـان بالله من جانب آخر ، أى لا يربط الله سبحانه بين الرزق والإيمان ، وبين عدمه والكفـر بالله . يقول جل جلاله :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيهـا لا يبخسون . اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار ، وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون » (٣١) .. أى أن أولئكم الذين يكفرون بالآخـرة ـ وهم الماديون الذين لا يرون فى حياة الإنسان إلا المتع المادية وحدها ـ ويقصرون سعيهم وعملهم فى الدنيا على تحصيل متعها وما يعد زينة فيها .. هؤلاء .. لا يبخس نصيبهم من هذه المتع المادية بسبب كفرهم وبعدهم عن الإيمان بالله واليوم الآخـر . بل يوفون ما يكون لهم ، بغض النظـر عن معارضتهم الإيمان ورسالة الله للإنسان على هذه الأرض . ولكن لهم عقابهم فى الآخرة فى نار جهنم جزاء لعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر مهما كان لهم من عمل خير فى حياتهم الدنيوية ، طالما كانوا مصرين على عدم الإيمان ، فإنه

(٣١) هود : ١٥ ، ١٦

عديم الاعتبار ، ولا يغير من استحقاقهم الجزاء السيء شيئا « وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » ..

فالقرآن الكريم يضع أمام الرسول عليه السلام المبدأ ــ وهو مبدأ الفصل التام بين الاستمتاع بمتع الحياة الدنيا والكفر بالله واليوم الآخر ــ بعد أن يؤكد له فى آية سابقة فى قوله تعالى : « **فان لم يستجيبوا لكم** (أى لم يستجب لدعوتك هؤلاء الماديون المكيون) **فاعلموا أنما أنزل بعلم الله** (أى فتأكد أن القرآن أنزل إليك بعلم الله) **وأن لا اله الا هو** » (٣٢) .. (كما تتأكد أنه ليس فى الوجود إلا الله وحده . وهى دعوة الرسالة الإلهية عموما) بعد أن يؤكد له هاتين الحقيقتين : حقيقة وقوع القرآن وحقيقة وجود الله وحده فى هذا الكون .

والقرآن يفصل فصلا واضحاً بين نعم هذه الحياة ومتعها من جانب والكفر والإيمان بالله من جانب آخر ، لأنه يرى : أن الدنيا والحياة فيها فترة اختبار للإنسان . هى اختبار بالحصول على النعم ، واختبار أيضاً بالحرمان منها : « ونبلوكم بالشر (وهو الحرمان والفقر) **والخير** (وهو النعم ومتع الحياة المادية) **فتنة** » (٣٣) .. فمن أعطى نعمها فهو مختبر بطريق التصرف فيها ، فمن اهتدى إلى الإيمان بالله وإلى الطريق السوى فى معرفة حقه وحق الآخرين فيما يملك منها كان فى طاعة الله . وكذلك من صبر على الحرمان منها ولم يقنط من رحمة الله .

ولو قصر الله الدنيا ونعمها على مؤمن به لما اتضح للآخرين معه موقفه من الحرمان من هذه النعم . ولو قضى الله أيضاً بحرمان الكافر لما أتاح له فرصة تظهر فيها تصرفاته عند الاستمتاع بها .

ثم من جهة أخرى ليست الدنيا دار جزاء ، وإنما دار الجزاء هى الدار الآخرة وحدها . وطالما أن الدنيا ليست دار جزاء على الإيمان والكفر بالله فالعدل الإلهى يقضى بأن سعى الإنسان من أجل الدنيا ، ولو كان مصراً فى معارضته للإيمان بالله ، لابد أن يصل إلى غايته ويحقق نتائجه . ومن هنا كان منطق القرآن فى هذا الشأن فى قوله تعالى :

---

(٣٢) هود : ١٤ (٣٣) الانبياء : ٣٥

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » . منطق العدل ومنطق الأمر الطبيعى الذى ينطلق إلى نهايته بعد تحقيق مقدماته ، دون عقبات تعترض طريقه .

والمدعون للإيمان بالله وهم وحدهم الذين يتشككون بسبب الحرمان أو يهتز إيمانهم بغير المؤمن الذى تكون له وجاهة فى الدنيا بماله أو بقوته .

* * *

● **من يؤثر الدنيا على دين الله يترقب نهايته :**

فرق بين أن يستمتع الإنسان بمتع الحياة الدنيا ، من غير أن يؤثرها على دين الله ، وبين أن يؤثر هذه المتع على دين الله . فالمستمتع بمتع الحياة الدنيا من غير أن يؤثرها على دين الله لديه مكان ــ وربما أوسع ــ فى حياته لتطبيق مبادىء الدين مع استمتاعه ، جنبا لجنب .. لله نصيب فى ماله ، وفى تجارته ، وفى عمله .. يشارك فى الجهاد فى سبيل الله بنفسه ، وولده ، وماله .. هو إنسان فى علاقاته بالآخرين ، يشاركهم فى سرائهم وضرائهم ، مؤمن بالله كما هو مؤمن بالبعث واليوم الآخر .

ولكن من يؤثر متع الحياة الدنيا على دين الله ليس لديه فى الحياة أى مكان لتطبيق مبادىء دين الله . يؤمن بالحياة الدنيا وحدها ، بينما يكفر الله ؛ وإن لم يعلن الكفر به ، يؤمن بالبقاء الأبدى لهذه الحياة ، بينما ينكر اليوم الآخر . أسرته وعصبيته أقرب إلى نفسه وقلبه من الله ورسوله . حرصه على المال المدخر والتجارة الرابحة ، والمساكن المترفة يملك عليه جميع نفسه ، فلا يرى بعدها إنسانا يعطف عليه ، أو جاراً بعيداً أو قريباً يشاركه عواطفه وأحاسيسه . إنه يعيش لنفسه وأقربائه ، دون من سواهم . إذا ناداه الجهاد فى سبيل الله صم أذنيه ، وإذا واجهه ما ينكره دين الله تجاوزه ببصره ، وإذا طلب إليه أن يشارك فى إيذاء الآخرين أو فى تعذيبهم أو إرهابهم استجاب لما يطلب منه ، طالما يعود عليه من المشاركة بمال أو جاه يستخدمه فى الحصول على مال جديد .

نوعان إذن من الناس : نوع تواتيه نعم الله فلا يطغى بها ، وإنما يقدم

فى حياته ما لله على ما لنفسه ، ومع ذلك يعرف فضل الله فيستمتع به . ونوع تواتيه هذه النعم فيكفر بها : إذ يوجهها إلى الترف ، أو الطغيان ، ومن ثم إلى الإلحاد والصد عن دين الله . فهو لا يرى الله وراء هذه النعم ، فضلا عن أن يراه هو مصدرها .

هذا النوع الثانى بنظرته إلى هذه النعم ، وبسوقه منها على هذا النحو ، يهدم ذاته أولا . فليس هناك مترف لم يصل بترفه إلى العبث والفساد . وليس هناك طاغ لم يسلك بطغيانه طريق الظلم . والظلم طريق الضياع .

والآية الكريمة فى قول الله تعالى : « **قل ان كان آباؤكم وابناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها** (أى كسبتموها) **وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره** » (٣٤) .. هذه الآية تقرن كنتيجة ضرورية عقاب الله ، بإيثار الدنيا ومتعها على دين الله . وعقاب الله يأخذ صوراً عديدة . أما الدنيا التى تؤثر فهى هنا ممثلة فى العصبية ، والأموال المدخرة والتجارة السائدة ، والمساكن المحببة . وأما دين الله فهو منهج الحياة الإنسانية المستقيمة .

.. وإذا شئنا الآن أن نحدد توجيه القرآن فى هذه الآية . فنجد أن الأمر المبغوض إلى الله هو فقط وقوع الإنسان تحت إغراء ما فى الدنيا من متع . تلك المتع التى تتصل بالقوة المادية الممثلة فى العصبية . كما تتصل بالمال المدخر والتجارة المزدهرة ، وبالإقامة فى المساكن المريحة . وآية وقوعه تحت الإغراء : تجاهله دين الله فى نعم الله عليه .

وإذ تربط الآية هنا بين عقاب الله من جانب ، وإيثار متع الدنيا على دين الله من جانب آخر فإنها تصور مبدأ هاما من مبادىء الحياة الإنسانية لا يتخلف إطلاقا هو : أن من يؤثر الدنيا على دين الله ينتظر على الأقل الزوال حتما . والمؤثر للدنيا هو الطاغى والباغى ، والعابث بمتع الدنيا . لا يعرف إلا نفسه وجماعته ، كفر بنعمة الله ، ولم يشكره عليها بتوجيهها فيما أوصى به كتاب الله .

* * *

(٣٤) التوبة : ٢٤

● المنفعية فى عبادة الله طريق الخسران :

بعض الناس يدخل فى دين الله ، لا إيماناً به كطريق ومنهج مستقيم فى حياة الإنسان ، ولكن كسبيل إلى تحصيل منفعة . وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذا البعض بقول الله تعالى : « **ومن الناس من يعبد الله على حرف** ، (أى يعبده وهو واقف على طرف .. غير مستقر فى إيمانه ، وغير مطمئن فى عبادته ، يترقب الأمر) **فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه** (أى إن أصابه مال وفضل من الله هدأ بأنه مؤقتاً . وإن لم يصبه مال ، بل استمر على وضعه فى الفقر ، أو فقد جزءاً مما يملك ولكى وأدار ظهره لما آمن به . فإنما إيمان منفعة دنيوية ، وانضمامه إلى جماعة المؤمنين سبيل للحصول على هذه المنفعة . وهذا البعض من الناس يحكم القرآن على سلوكه الانتهازى ، بالخسران ، فى قوله) : **خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين** » (٣٥) .. فهو خاسر فى الدنيا ولو أصاب مغنما من إعلانه الإيمان . لأن الإيمان لم يكن عندئذ مصدراً لمصلحة تعود على الذات كإنسان بالهداية ، واستقامة السلوك الإنسانى ، بل كان مصدراً لعرض دنيوى يأتى ويزول . وهو خاسر فى الآخرة لأن الله يعلم نفاقه فيما آمن به . ويعلم أنه متأرجح فى هذا الإيمان . فإيمانه غير مقبول عنده ، وإن عبد الله فصلى ، وصام ، وزكى : « **وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون** » (٣٦) ..

.. هذا الذى يعرضه القرآن الآن ـ كظاهرة من ظواهر المجتمع البشرى ـ يعود إلى مبدأ فى الطبيعة البشرية .. يعود إلى الرغبة فى الاحتراف بالقيم العليا ، واستخدامها كوسيلة إلى الحصول على المنفعة بدلا من ممارستها فى حياة الإنسان . والذين يميلون إلى الاحتراف بها ينتهزون الوقت الملائم . وهو وقت الإعلان عن إصلاح أو تغيير جذرى فى المجتمع . وهو عادة الوقت الذى تطرح فيه قيم جديدة ، وكذلك الوقت الذى يترقب فيه أصحاب الدعوة إلى الإصلاح أو التغيير : أن يبارك دعوتهم أنصار لها

---

(٣٥) الحج : ١١ (٣٦) التوبة : ٥٤

من بين أعضاء المجتمع . وقد كانت دعوة الإسلام دعوة إلى تغيير المجتمع القائم على عهد الرسالة ، وتحويله من مجتمع تسود فيه المادية العلاقات بين الناس إلى مجتمع تعلو فيه الروابط الإنسانية غيرها من روابط أخرى . فقد جاء قوله تعالى : « **واعتصموا بحبل الله جميعاً** (تعبيراً عن الترابط الجديد . وهو الترابط على أساس الهداية الإلهية ومبادئها . وهى مبادىء تمثل القيم العليا فى حياة الإنسان . فى الوقت الذى يحذر فيه من العودة إلى العلاقات المادية التى كانت ، وهى علاقة الدم أو العشيرة والقبيلة ، عندما تستطرد الآية فتقول) : ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم (أى الآن بعد الهداية) **اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً** » (٣٧) ..

وفى عصرنا السياسى تتغير القيادات فى المجتمع لسبب أو لآخر . وفى كل مرة يعلن فيها عن التغيير يطل المحترفون بالقيم العليا ، ويعلنون الولاء أو الإيمان بالجديد ، انتهازاً فقط للفرصة الجديدة . وهذا الإعلان للولاء يتكرر ، كلما تكرر التغيير أو أعلنت دعوة إلى الإصلاح .

والاحتراف بالقيم العليا يقوم أصلا على النفاق والانتهازية . والنفاق يمثل خطراً كبيراً على دعوة الإصلاح ، أو على وضع التغيير فى قيادة المجتمع . ومن أجل ذلك يتعرض القرآن للنفاق ونتائجه ، فى غير موضع . وأدنى ما ينبه إليه أن يحذر الرسول عليه السلام كقائد وحاكم وصاحب رسالة لتغيير المجتمع ، من طاعة المنافقين ، فى قول الله تعالى : « **ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا** » (٣٨) ..

أما المباشرون من المنافقين للاحتراف بالقيم العليا فيكشف عن مصيرهم طال الوقت أم قصر ، بأنه مصير الخاسرين . وهو تجارة خاسرة ، مهما حصل صاحبها من منفعة مادية . لأن المحترف بالقيم العليا يبرهن على أن نفسه من النفوس الأمارة بالسوء . من النفوس الضعيفة التى تتلون وتشكل ، حسبما يراد لها ، فنفسه الآن لا تقاس بمستوى الإنسانية وإنما بمعيار المال كسلعة من السلع العديدة فى هذه الحياة .

* * *

(٣٧) آل عمران : ١٠٣ (٣٨) الاحزاب : ٤٨

● **التوجه لغير الله دليل الضعف :**

إن دعوة الرسالة الإلهية إلى التوحيد ، وعبادة الله وحده ، وطرح الشرك والوثنية ، هى دعوة الإنسان إلى الاحتفاظ بكرامته ، والسعى نحو تنمية ذاته فى خصائصها البشرية ، من الحكمة فى التفكير .. والجمال فى الوجدان .. والعزم فى الإرادة .. فالمنطق السليم يجنب الإنسان : الحمق والهوج فى التصرف ، والإحساس بالجمال فى الوجدان يدفع إلى الخير والحب والعطاء للآخرين فى غير مقابل . والعزم ينحى عن الإنسان التردد فى مباشرة العمل .

فوحدة الألوهية ــ عند الاعتقاد بها ــ تجعل الإنسان ثابتاً فى تقديسه لصفات الكمال التى تتصف بها الذات الإلهية ، وفى سعيه نحو التقرب منها ، بمحاكاتها . وتأكيد دعوة التوحيد فى رسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام هو لإيقاظ الوعى فى المؤمن الذى يؤمن بها ، بأن يكون الإنسان القوى الذى يسيطر على هواه وشهوته ، والإنسان العزيز على غيره وعلى الأحداث ، فلا يغلب على أمره بمجرد المواجهة ، ولا يستسلم عند أدنى احتكاك واختبار له .

ومتى صار الإنسان إلى القوة والسيادة على شهوته وهواه ، ووصل إلى المنعة على غيره والأحداث معاً ، فهو ذلك الإنسان الذى يتمتع بمستوى رفيع فى الإنسانية : لا يظلم .. ولا يعتدى .. ولا يطغى .. ولا ييأس . ولا يخاصم من أجل شهوة .. ولا يحقد بسبب افتقاره ما عند الآخرين .

* * *

ولهذه الآثار الإيجابية فى مستوى الإنسانية التى تصحب الإيمان بوحدة الألوهية يحذر القرآن البشر إلى يوم البعث . من الشرك والوثنية .. أى يحذر من عبادة غير الله : إنساناً .. أو حجراً .. أو طبيعة من الطبائع .. أو موجوداً من الموجودات .. أو معنى من المعانى : كالعلم ، والإنسانية ، والمجتمع ، والدولة ، والحزب . ويرى أن الوثنية هى مصدر الانحطاط فى الإنسان .. هى مصدر الضعف فيه .. هى مصدر بعده عن الخالق فيما له من صفات الكمال .. هى مصدر الاستسلام للشهوات والأهواء .. هى مصدر الشرور فى البشرية . والوثنية هى التوجه لغير الله ، فى التعظيم

والإجلال ، والخضوع والطاعة . وقد شاء القرآن الكريم أن يوضح آثار الوثنية التى تنعكس على المشرك بالله ، فأجملها فى : الضعف . وهو ضعف الإرادة .. ضعف النفس .. ضعف المقاومة للإغراء .. ضعف المقاومة للاعتداء .. ضعف الاستسلام للوهم والخرافة .. ضعف التصور للعالم والكائنات فيه . يقول تعالى :

« **يا أيها الناس** (ويقصد بالناس هنا أولئكم الذين يتجهون بعبادتهم إلى الوثنية والشرك) **ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله** (أى الشركاء الذين تجعلونهم أنداداً لله ، وتعبدونهم من دونه) **لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ،** (أى هم من الضعف فى آحادهم وفى تجمعهم معاً ، بحيث لا يستطيعون أن يخلقوا أضعف مخلوق ترونه وهو الذباب) **وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ،** (بل أزيد من أنهم لا يستطيعون خلق الذباب ، إنهم لا يستطيعون أن ينقذوا منه ما قد يكون قد استولى عليه منهم . فليست لهم قدرة على الإيجاد ، ولا على الإنقاذ لشىء غلبوا عليه من مخلوق ضعيف كالذباب) **ضعف الطالب والمطلوب** . (وإذن ، فهؤلاء الذين جعلوهم أنداداً لله ضعاف فى ذواتهم بالبرهان العملى ، وكذلك من يعبدونهم من هؤلاء الوثنيين ضعاف كذلك ، بدليل أنهم يعظمون من لا شأن له . ومن يعظم من لا يعظم ، ضعيف فى تصوره وتقديره) . **ما قدروا الله حق قدره ،** (أى : وساءة أن عظموا مالا يعظم ، وعبدوا ضعيفاً فى ذاته من الأوثان والشركاء ، ولم يتجهوا بعبادتهم لله وحده ، لم يقدروا الله حق قدره ، بل ساءوا تقديره) **ان الله لقوى عزيز** » (٣٩) .. (فالله هو القوى وهو صاحب المنعة على غيره . فإشراكهم غيره ــ وهم الضعفاء ــ له فى العبادة : بخس فى تقدير ذاته وصفاته سبحانه) . ثم طالما الله هو القوى العزيز فعبادته وحده تنعكس على العابد له ، والمؤمن به . وإذن الإيمان بوحدة الألوهية هو مدخل القوة فى الإنسان ، ومدخل عزته ومنعته على الآخرين ، وعلى الأحداث التى تواجهه . بينما التوجه لغير الله دليل ضعف الإنسان ، ثم فى الوقت نفسه مصدر استمرار ضعفه : فى تصوره .. وفى تقديره للأمور ، وحكمه على الأشياء .

---

(٣٩) الحج : ٧٣ ، ٧٤

وهكذا من يعبد غير الله لا يستحق أن يشار إليه كإنسان . وما أكثر الضعفاء فى عالمنا المعاصر الذين يعبدون غير الله .

* * *

● **الارتداد عن دين الله لا يشكل حرجاً على الدين :**

.. إذا طغت موجة المادية ، وانتشر الإلحاد فى فترة ما ، فإن كثيراً من المؤمنين بدين الله يخشون على دينه ، ويقلقون على التدين به من الارتداد عنه تحت تأثير تلك الموجة الطاغية ، ويغلب عليهم التشاؤم . ولكن يجب أن يكونوا على بينة من أمرين :

الأمر الأول : أن مجال الحياة الدنيا إلى يوم البعث لا يخلو من الإيمان بالله والكفر به معاً ، والصراع بينهما . إذ ذلك ما وعد به الله إبليس عندما سأله بقوله : « **قال** (إبليس) **رب فانظرنى الى يوم يبعثون . قال** (الله جل جلاله) **فانك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم . قال** (أى إبليس) **فبعزتك لأغوينهم أجمعين . الا عبادك منهم المخلصين** » (٤٠)

الأمر الثانى : كما أتاح الله الفرصة فى الدنيا لإبليس كى يمارس نشاطه فى الشر والغواية ، فإنه يعد ــ محافظة على بقاء الإيمان بدينه ــ بتغيير المجتمع الذى يرتد عن دين الله ويكثر فيه الإلحاد ، ويشارك إبليس جولته فى الشر ، ويأتى بمجتمع آخر تقوم الروابط فيه على المحبة بين أفراده بعضهم مع بعض ، وبينهم وبين الله سبحانه : يحبونه ويحبهم .. أعزاء وأصحاب منعة على أعدائهم ، بينما هم فى طاعة بعضهم البعض .. لا يدخرون وسعاً فى المحافظة على دين الله ، يفدونه بالمال والنفس .. ولا يخافون فى سبيل دينه حاكما أو صاحب بطش وقوة ، ولا صاحب نقد أو موجهاً للوم أو عتاب : « **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين** (أى فى طاعة بعضهم بعضاً) **اعزة على الكافرين** (أى أشداء وأصحاب قوة ومنعة على معارضيهم وأعدائهم) **يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم** » (٤١) ..

---

(٤٠) سورة ص : ٧٩ ــ ٨٣ (٤١) المائدة : ٥٤

obeikandl.com

وهذا الوعد من الله بتغيير مجتمع المرتدين عن دين الله عند ارتدادهم ، وإحلال مجتمع مؤمن بالله قوى فى إيمانه محله : هو مبدأ يصور إرادة الله وفضله على البشرية . ولكن متى يكون هذا التغيير للمجتمع الذى يتفشى فيه الإلحاد والارتداد ؟ . ذلك فى علم الله : « **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم** » (٤٢) ..

.. فكثرة الإلحاد وشيوع الارتداد عن دين الله فى مجتمع ما يجب ألا يخيف مؤمناً بالله فيه . وتقرّب العلماء للولاة والحكام فى مجتمع ما على حساب الإسلام يجب ألا يفزع المتوجسون خيفة فيه على دين الله من طغيان المادية . وشيوع التحريف والخلط واللبس فى إقامة الحجة فى مجتمع ما على تخلف الرسالة الإلهية أو على سلبيتها يجب أن يكون بالأحرى مشعل أمل فى التغيير المرتقب الذى وعد به الله سبحانه . فطالما أفسح الله فى هذه الحياة الدنيوية للشيطان مجالا للشر ، الذى يتمثل فى الإلحاد ، وفى الضلال ، وفى الارتداد عن دين الله تحت أى شعار ، فإنه حتما يبقى فى هذه الحياة على الإيمان به قائماً فى وجه الشر ، لا يفنى كذلك إلى يوم الدين . ولكن فقط الإبقاء على الإيمان بالله فى هذه الحياة الدنيا يكون بإحلال مجتمع مؤمن محل المجتمع الذى كثر إلحاده وارتداده عن دين الله .

ليس هناك حرج إطلاقا على دين الله من الإلحاد وطغيان المادية ، وإن تكن هناك أزمة بالنسبة للمؤمنين القلة عندئذ . وهذه الأزمة ستزول حتما ، « **فان مع العسر يسرا . أن مع العسر يسرا** » (٤٣) ..

.. هى أزمة للمؤمنين القلة عندئذ ، ولكنها ليست أزمة للإيمان . لأن الإيمان لا يستأصل ولا يضار ، طالما موطنه القلوب . فأى قلب ينبض بالإيمان كفيل بالمحافظة عليه . ثم ينقله إلى قلب آخر وآخر ، حتى يتكون مجتمع جديد لمؤمنين جدد ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .

لا يأس إطلاقا مع وجود بصيص من نور الله فى هدايته على الأرض ، مهما قل عدد المؤمنين وكثر الآخرون الملحدون والماديون :

---

(٤٢) المائدة : ٥٤ (٤٣) الشرح : ٥ ، ٦

« فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين » (٤٤) ..

* * *

● **الخروج عن دين الله لا يصيب دعوة الله بسوء :**

يظن بعض الذين يعلنون إيمانهم بدين الله فى صورة أو فى أخرى : أن دين الله مدين لهم بالفضل ، وأنهم يعينونه على البقاء . كما يظن بعض الآخرين ممن يصرحون بتحديهم لدين الله وبإعلان السخرية منه : أنهم يسيئون إليه وينتقصون من قيمته بمعارضتهم أو بتحديهم . والقرآن يجعل من بين مبادىء دين الله الواضحة : أن منفعة الهداية به تعود على المهتدى ذاته .. وأن ضرر الضلال والإلحاد والتحدى يعود على المعارض والملحد نفسه :

« من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها » (٤٥) ..

فأمر الهداية والضلال أمر شخصى تعود آثاره على الشخص ، دون أن تعود على الدين ، بنفع أو ضرر . وعلى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام جاءه نفر من الأعراب بتفكيرهم البدائى ، وهو التفكير المرتبط بالمصلحة الشخصية ، وعندما التقى هذا النفر به صلوات الله عليه امتنوا عليه بأن أسلموا وأصبحوا من أمته وجماعته . فنزل الوحى يفصل فيمن هو يجب أن يمتن على الآخر : أهو الله الذى هداهم للإيمان ، أم هم الذين أعلنوا إسلامهم ؟ ، ويحدد أن صاحب المنة هو الله وحده :

« يمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا على اسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين » (٤٦) ..

على أن الذين يرتدون عن دين الله بإلحادهم وبسخريتهم من مبادئه وبتصورهم أنهم أرفع من أن يعبدوا إلها لا يرونه ــ ولا يستطيعون أن يخضعوا حياته جل جلاله إلى اختبار عضوى أو مادى أو ملاحظة حسية ــ يجب أن يتوقعوا أن إرادة الله ــ وهى قانون لا يتخلف عنه أى شأن من

---

(٤٤) المائدة : ٥٤
(٤٥) الاسراء : ١٥
(٤٦) الحجرات : ١٧

شئون الموجودات فى الكون ــ لا تتركهم إلى غير أجل يستمرئون عبثهم فى التفكير والتصور . وقد أعلنت هذه الإرادة عن نفسها فيما وعد به الله سبحانه فى مصير مثل هؤلاء المرتدين فى أية فترة من الفترات فى تاريخ البشرية وهو مصير انقضاء أمرهم فى التوجيه والزعامة ، وإحلال غيرهم ممن هم أعلى فى حبهم لله والإيمان به ، محلهم فى قيادة مجتمعاتهم : « **يا أيها الذين آمنوا** (أى أعلنوا إيمانهم) **من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين** (أى أصحاب تواضع فى علاقتهم بإخوانهم المؤمنين) **اعزة على الكافرين** (وأصحاب منعة وقوة فى مواجهة الملحدين الماديين) **يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم** » (٤٧) ..

إن تصور الملحدين بإلحادهم والمرتدين عن دين الله بردتهم ، أنهم بإلحادهم وبردتهم يقضون على دين الله تصور ضيق . دفع إليه غرورهم واستكبارهم ، وغفلوا فى الوقت نفسه عن سنن الحياة البشرية والقوانين التى تحكم هذا الكون ، وهى سنن وقوانين تفصح عن تدبير الله ، وقدرته وشمول علمه . لم يسألوا أنفسهم : لماذا تتغير المجتمعات ؟ . ومتى تتغير ؟ . وهل تتغير إلى الضد أو النقيض ، أم تتغير إلى المساوق والشبيه ؟

إن تغير المجتمعات هو تغير فى قيادتها وفى مبادئها فمجتمع الرسول عليه السلام يختلف عن مجتمع الجاهلية والمادية السابقة عليه : فى قيادته وفى القيم العليا التى آمن بها أفراده ، وفى العادات والتقاليد الجديدة التى دفعهم التحول الإسلامى إلى تكوينها والسير عليها . أما أفراده فهم من الأفراد السابقين ، والقوى منهم فى الإيمان كان القوى أيضا فى الجاهلية والمادية السابقة عليه . والتغير من المجتمع الجاهلى والمادى السابق إلى المجتمع الإسلامى والإنسانى هو تغير من النقيض إلى النقيض ، وليس تغيراً إلى الشبيه .

وإذن إذا ساد الإلحاد والارتداد فترة من الزمن لابد أن تتغير هذه القيادة المرتدة والملحدة إلى قيادة على النقيض منها ، وهى القيادة المؤمنة .

---

(٤٧) المائدة : ٥٤

وإذا استحال أن تسود موجة الإلحاد والارتداد عن دين الله إلى يوم البعث فإنه من المتوقع : التغيير . ولكن متى ؟ ذلك مرهون بإرادة الله . وعلى كل حال : « **فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم** » (٤٨) ..

* * *

● **غير المؤمن بالله لا يقدم على القتال الا عند التفوق فى الاعداد والتحصين :**

.. يخبر الله المؤمنين بأن نفوس الماديين من بنى إسرائيل تهتز وتضطرب كثيراً إذا التقت بهم ، كمؤمنين بالله ، واهتزازها ، واضطرابها من المؤمنين أكثر من اهتزازها واضطرابها من الله العزيز الحكيم : « **لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله** » (ويعلل القرآن ذلك بقول الله تعالى بعد هذا) : **ذلك بأنهم قوم لا يفقهون** » (٤٩) .. (أى لا يستخدمون المنطق والفهم السليم فى حياتهم . إذ لو استخدموا المنطق والفهم فى اعتقادهم وتصرفاتهم لآمنوا بالله وحده ، ولم يكفروا بالبعث والحياة الأخروية . وإذا وصلوا بالمنطق وحجة العقل إلى الإيمان بالله أصبحوا لا يخشون أحداً إلا الله وحده . ولكنهم وقعوا تحت تأثير المادية : يقدرون القوة المادية وحدها .. ويخشون العدد والكم .. ويؤثرون المشاهد المرئى ، ويتوجسون خيفة من حجمه وضخامته . ولو علموا : أن إيمان المؤمن بالله هو الذى يدفعه إلى القتال والاستشهاد فى ميدانه ، والجهاد فى سبيل الله ، بعد النفس ، وبالمال ، والولد ، لقدروا الروح أكثر من تقديرهم للكم المجسم) .

وتفريعا على إخبار الله المؤمنين بهذا الوضع النفسى للماديين من بنى إسرائيل : يعلن المؤمنين بنتائج هذا الوضع فى حياة أولئكم الماديين ، حتى يستطيع المؤمنون أن يحددوا موقفهم منهم :

فيذكر أن أولئكم الماديين من بنى إسرائيل ــ وهو شأن عام للماديين أينما وجدوا فى أى وقت ومكان ــ لا يتوجهون لقتال المؤمنين ولا يباشرون

---

(٤٨) المائدة : ٥٤ (٤٩) الحشر : ١٣

مقاتلتهم إلا فى حصون محكمة ، أو من وراء جدار . أى من وراء مانع من الموانع التى تعطى للمقاتل فرصة التفوق على مقاتله . وهى فرصة الاحتفاظ بحياته من جانب ، وإصابة المقاتل الآخر من جانب آخر . وقد يكون هـذا الجدار استحكاما من الاستحكامات الحربية .. وقد يكون تقدما علميا فى نوعية السلاح الذى يستخدمه المقاتل . ويقول فى ذلك القرآن الكريم : **« لا يقاتلونكم جميعاً الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر »** (٥٠) ..

ويعود القرآن بعد ذلك لتوضيح : أن تجمع الماديين عند القتـال فى القرى المحصنة أو من وراء جدر لا يعبر عن وحدة متماسكة بينهم . لأن الماديين عادة تفرقهم المصالح الشخصية .إذ طالما الأنانية تسود تفكيرهم ، وطالما تسود المصالح الفردية الروابط بينهم ، فإن تجمعوا فلوقت قصير ، ولا يتجمعون إلا إذا ضمنوا الوقاية من الأخطار على حياتهـم كأفراد : **« بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ،** (**والمـراد بالبأس** بينهم هو الخصومة بين بعضهم بعضاً ، ولا تحل الخصومات فى العلاقات بين الأفراد إلا إذا سادت الأنانية وساد الحرص على المنافع الشخصية وحدها . فإذا اشتد البأس واشتدت الخصومة بين الأفراد ، فحتما لا يوجد تجمع منهم ، يعبر عن وحدة متماسكة بينهم . إذ قلوبهم عندئذ موزعة ومفرقة . وهى شتى ، حسب تعدد الأهواء فى المنافع الفردية ، ثم يكرر القرآن مرة أخرى سبب وجود هذه الظاهرة فى حياة الماديين ، وهى ظاهرة الفـرقة ، وعـدم التماسـك ، فيقـول) : **ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »** (٥١) .. (أى لا يستخدمون حكمة العقل فيما يفكرون ويعتقدون وإنما تغريهـم ماديات الحياة ويقعون تحت تأثيرها ، ويشتد سعيهم للاستمتاع بها ، وبذلك تبقى الأهـواء والشـهوات مسـيطرة عليهـم ، وليس العقـل ، وليست الحكمة) .

وخلاصة ما يوحى به الله فى هذه الآية فى سورة الحشر :

أولا : أن الماديين من بنى إسرائيل ــ كشأن الماديين عادة ــ يرهبـون المؤمنين ، ويخشون لقاءهم فى القتال .

---

(٥٠) الحشر : ١٤ (٥١) الحشر : ١٤

ثانياً : أنهم إذا أرغموا على قتال المؤمنين قاتلوهم فى حصون محكمة ، وفى تفوق استراتيجى يضمن لهم الوقاية من الأخطار .

ثالثاً : إن تجمعهم فى وقت من الأوقات لا يدل على تماسكهم وعلى وحدتهم . بل الخصومة الفردية بينهم شديدة ، سعياً وراء المنافع المادية .

وهكذا عوامل الضعف فى الجانب النفسى قائمة لدى الماديين . ولا يمكن لهم أن يغيروا هذه الظاهرة النفسية لديهم ، إلا إذا غيروا أنفسهم أولا . وتغيير أنفسهم بتغيير منطقهم وتفكيرهم فى الاعتقاد والسلوك . إذ عندئذ يسهل عليهم الإيمان بالله ، وهو وحده الضمان للتغلب على عوامل الضعف .

والمؤمنون بالله يجب عليهم لذلك : أن يأخذوا فى حسابهم عند تحديد موقفهم من الماديين : هذه الظاهرة النفسية . وهى ظاهرة الحرص على الحياة التى ينشأ عنها التردد فلا خروج إلى القتال ، إلا فى ظل وقاية قوية ، وفى ظل ضمان من الأخطار ، وإلى وقت قصير إن خرجوا فى ظل الاطمئنان النفسى إلى الوقاية الكافية . وقد وصف القرآن اليهود الذين وقعوا تحت تأثير المادية ، وكذلك الوثنيين الماديين بقوله : « **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة** » (٥٢) .. أما المؤمن إذا استشهد فى سبيل الله فيعتقد أنه حى يرزق عند ربه ، ولذا هو يسعى إلى الاستشهاد فى ميدان القتال : « **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله** » (٥٣) .. وهكذا الإيمان عامل إقدام .. والمادية عامل تردد ونكوص .

* * *

● **اعلان الحق تعبير عن قوة الايمان :**

ينطق الإنسان بالحق بينه وبين نفسه .. وقد ينطق به فى غيبة التهديد والخوف من الآخرين .. ولكن النطق بالحق على هذا النحو أو ذاك ،

---

(٥٢) البقرة : ٩٦ (٥٣) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠

لا يدل على الإيمان عندئذ فضلا عن القوة فيه . والناطق بالحق على هـذا النحو أو ذاك : لم يمارس الحرية البشرية فيما أعلن أو فيما نطق به . لأن الحرية ليست هى التمكن من الممارسة ، ولكنها الممارسة عندما تكون هناك قيود من الآخرين ، تحول عادة دونها .

إعلان الحق يكون دليلا على قوة الإيمان به ، عندما يوجد تهديد من الآخرين ضد إعلانه ، أو عندما يوجد خوف من الآخرين بسبب إعلانه . أى عندما يكون الجو لإعلان الحق غير خال من العقبات ، أو المخاوف .

إعلان الحق فضيلة إنسانية . شأنها شأن كل الفضائل التى يتميز بها فريق من الناس على فريق آخر . والفضائل الإنسانية تكتسب بالإرادة والتحمل .. تكتسب بالسعى والمجاهدة النفسية .. تكتسب بالعمل القائم على الشجاعة والثبات . فقدرة الإنسان على الحرمان من المتع المادية لا تكون فضيلة إلا إذا استطاع الإنسان أن يحصل على هـذه المتع أولا ، ورغم الحصول عليها يمارس الحرمان منها . ولا تكون إطلاقاً عند العجز وعدم التمكن منها .

وعطاء الإنسان للآخرين لا يكون فضيلة إنسانية إلا إذا كان عن إرادة وعن رغبة قوية فى العطاء : « **ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً** » (٥٤) .. ولا يكون فضيلة إذا دفع إليه الخوف من الآخرين ، أو التهديد منهم . إذا دخله الإلزام من الغير .

كذلك الإعلان عن الحق يكون دليلا على قوة الإيمان ، إذا نشأ عن إرادة قوية تذلل العقبات أو تتجاوز العقبات القائمة .. إذا كانت هناك مجاهدة نفسية فى وقوعه .

وكذلك الحرية البشرية لا تكون فضيلة يمارسها الإنسان إلا إذا رافقها سعى لعدم الاهتمام بالقيود ، والتغلب نفسياً على الصعاب التى يضعها الآخرون .

---

(٥٤) الانسان : ٨

ولأن المجاهدة النفسية أمر ضرورى فى كسب الفضائل .. أى مجاهدة الشهوة والهوى ، والخوف ، والتهديد : ضرورة فى كون الفعل أو عدم الفعل يتصف بالفضيلة كان المتصفون بالفضائل الإنسانية هم القلة بين الناس .. كانوا هم الآحاد بين العشرات والمئات .

والرسل عليهم الصلاة والسلام كانت مجاهدتهم النفسية فى فترات حياتهم مقدمة فى اختيار الله إياهم لرسالته للناس . فإذا قرأنا قوله تعالى بشأن إبراهيم عليه السلام « **قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه** (أى نموذج وقدوة حسنة) **اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده** » (٥٥) .. إذا قرأنا هذه الآية وجدنا أن إعلان إبراهيم مع القلة التى آمنت به . للحق فى عبادة الله وحده ، كان دليلا على قوة الإيمان منه ومن القلة المؤمنة به .. وكان دليلا كذلك على أنهم جاهدوا أنفسهم حتى وصلوا إلى حرصهم على الحق والإعلان عنه . فظروف معيشتهم بين الكثرة المادية من شأنها أن تضع الصعاب فى طريقهم إلى الإيمان بالحق أولا ، ثم إلى إعلانه ثانيا . وقد أعلنوا الحق فى وقت هددوا فيه بالرجم والقطيعة . فعلى إثر إعلان إبراهيم : الإيمان بوحدة الألوهية ــ وهو الحق الذى اعتقده ــ وجه إليه أبوه هذا التهديد : « **قال اراغب انت عن آلهتى يا ابراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرنى مليا** » (٥٦) .. وإبراهيم فى إصراره على الإيمان بالحق والدعوة إليه جهاراً ، لم يملك إلا أن يشفق على أبيه .. وإلا أن يعتزل قومه فى باطلهم فكان جوابه : « **قال سلام عليك ساستغفر لك ربى ، انه كان بى حفيا . واعتزلكم وما تدعون من دون الله** » (٥٧) ..

ولا شك أن موقف إبراهيم من أبيه وقومه ينطوى على مجاهدة نفسية ، كما أنه تعبير عن الحرية التى يمارسها الإنسان متجاوزا بها القيود والصعاب التى تكتنف ممارستها ، ولذا كان موقفاً معبراً عن قوة الإيمان بالحق .. وبالتالى كان أسوة حسنة للمؤمنين الأحرار .

* * *

(٥٥) الممتحنة : ٤
(٥٦) مريم : ٤٦
(٥٧) مريم : ٤٧ ، ٤٨

● **قوة الايمان كفيلة بتعويض النقص المادى فى مواجهة الأعداء :**

قضية « بدر » أن المؤمنين كانوا ضعافا . كانوا قليلى العدد ، وقليلى العدة بينما أعداؤهم من الماديين الوثنيين كانوا على العكس : كانوا كثيرى العدد ، وكثيرى العـدة .. كانت الزعامة لهؤلاء فى المجتمـع المكى ، وكان الأتباع مع كثرة عددهم رهن إشارتهم فى الحرب قبل السلام . وكان المال مثلا فى جوانب عديدة ، وفيراً لديهم ، ورغم عدم التكافؤ بين الطرفين : طرف المؤمنين .. وطرف الماديين الوثنيين إذ ذاك ، كان النصر للضـعفاء فى القتال ، عندما اشتبكا فى « بدر » . كان النصر للمؤمنين وهم على القلة فى العدد والكفاف فى المعيشة ، والتواضع فى الإعداد ، وسوء الوضع فى ميدان القتال . ويحكى نصر المؤمنين فى هذه الموقعة قوله تعالى : **« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ،** (أى وأنتم ضعاف فى الجـانب المادى) **فاتقوا الله لعلكم تشـكرون »** (٥٨) .. (أى فاستمروا فى اتباع هداية الله لعل استمراركم فى اتباعها يكون تعبيرا عن شكركم إياه على هذا النصر فى تلك الموقعة) .

هل كان نصر تلك القلة من المؤمنين ببدر نتيجة لمفاجأتهم الأعداء عند عودتهم من رحلتهم من الشام ؟ أى هل لم يتوقع هؤلاء الأعداء أن تفاجئهم تلك القلة المؤمنة بالمدينة وهم فى طريق عودتهم إلى مكة ؟ فلما فاجأتهـم واعترضت طريقهم ظنوا ــ أو اعتقـدوا ــ أن المؤمنين لا يواجهونهـم ، مع علمهم بقوتهم ، إلا وهم أنفسهم أقوياء .. إلا وهم كثيرون فى عددهم ، وإلا وهم على إعداد قوى للقتال ؟ أى أن عنصر المفاجأة كان من عوامل النصر . إذ أرعب هؤلاء الأعداء . ومتى ملك الرعب قلوبهم فلا يستطيعون أن يدبروا شـأن القتال ، فضـلا عن أن ينتصروا فيه ، ويشـير القرآن إلى ذلك فى قـوله تعالى : **« بل الله مولاكم ، وهو خير الناصرين . سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً »** (٥٩) ..

فعنصر المفاجأة « ببدر » كان سببا مباشراً فى رعب الأعداء واضطرابهم فى القتال ، بينما شركهم بالله وكفرهم به كان السبب فى أن دبر المؤمنون

---

(٥٨) آل عمران : ١٢٣

(٥٩) آل عمران : ١٥٠ ، ١٥١

بالمدينة لهم هذا الاعتراض الذى فاجأهم . وتدبير المؤمنين هذا الظـرف لأعدائهم يمثل إرادة الله فى هذا الكون . لأن ما يقع فيـه لابد أن يكون مراداً لله .

هل الإيمان بالله لدى المؤمنين عند ذهابهم لاعتراض أعدائهم « ببدر » فى طريقهم إلى ديارهم .. وعند لقائهم بهم فى ساحة القتال قد بلغ فى نفوسهم مستوى جعلهم يرون الشهادة فى سبيل الله هى أسمى هدف لهم فى حياتهم ، فتجاوزوا بنظرهم كل شىء فى الدنيا إلا أن يبيدوا أعداءهم الآن ، إفساحا لطريق الإيمان ، بحيث لا يعوق أو يسد ثانية من الصادين عنه ، والعابثين بالقيم الإنسانية فى حياة المجتمعات البشرية ؟ إن مستوى الإيمان الذى كان عند المؤمنين ببدر لم يتطرق إليه ضعف إطلاقا وهم فى ساحة القتال ، بعد أن ازدادت ثقتهم فى الله بالنصر آنذاك ، إن هم صبروا وتحملوا ، وإن هم ظلوا على اتباعهم لهداية الله ، ويحكى هـذا قوله تعـالى : « **اذ تقول للمؤمنين (أى فى بدر) الن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى ، ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم (أى الأعـداء) من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** » (٦٠) .. وإمـداد الله للمؤمنين بالملائكة قصد به اطمئنانهم إلى نصره ، والثقة فى وعده بالنصر لهم ، إن هم التزموا : التحمل والصبر على المكاره والمشاق فى القتال .. والتزموا اتباع هداية الله فى التضحية بالنفس والمال ، فى سبيل دعـوة الله ومؤازرتهـا . وفى التوكل عليه .

وهكذا . كان عامل المفاجأة فى الحرب .. وعامل الإيمان فى قوته وفى اتباع هداية الله من العوامل التى عوضت ضعف المؤمنين ، وحولت هـذا الضـعف إلى نصر واضـح ، ويحـكى هـذا النصر قـوله تعـالى . « **وما جعـله الله الا بشرى لـكم** (أى ما جعـل النصر مع الضعف فى العدد والعدة إلا بشرى لقوة الإيمان ، ودليلا على أن الإيمان عامل حاسم عند القتال) **ولتطمئن قلوبـكم به ، وما النصر الا من عنـد الله العـزيز**

---

(٦٠) آل عمران : ١٢٤ ، ١٢٥

الحكيم » (٦١) .. (وما وقوع النصر إلا بإرادة الله ، وإرادة الله تقرن النصر دائما بالإيمان به ، والاستشهاد فى سبيله) .

* * *

● **قوة الايمان فى عدم الاستسلام للصعاب والأزمات :**

إن الإيمان بالله غاية فى ذاته . وليس وسيلة لتحصيل المنافع لذات المؤمن . لأنه هو الاستناد إلى القيم العليا فى العلاقات بين الناس جميعاً ، فمهمة الإنسان فى حياته أن يعيش لمطلوب العقل ، والقلب فيه . ومطلوب العقل هو السلام فى نفس الفرد .. والسلام كذلك بينه وبين غيره . ومطلوب القلب هو العواطف الإنسانية التى تتمثل فى مثل : المودة والمعاونة .. والرحمة من القوى للضعيف . ومطلوب البطن والفرج فيه إذن يجب أن يكون فى خدمة القلب والعقل ، وليس على حسابهما .

والإيمان بالله إن وجد ــ وهو الذى يدفع إلى الاستناد إلى القيم العليا فى العلاقات بين الناس ــ وجد معه تواً مطلوب القلب والعقل . وكلما قوى الإيمان فى الإنسان كلما تزحزح إلى الوراء مطلوب الشهوة للبطن والفرج ، وكلما تقدم فى نفس الإنسان الثبات على القيم العليا ، أى الثبات على السلام والاطمئنان .. والثبات على المودة ، والمعاونة ، والرحمة . وعلى العكس إن انعدم الإيمان أو ضعف ، وأصبح مطلوب الشهوة هدفا يسعى الإنسان إليه وحده ، بينما القلب والعقل فى خدمة هذه الشهوة ووسيلة من وسائل تحصيلها . عندئذ تطغى الأنانية فى الذات . وإذا ما طغت الأنانية فى كل الأفراد كان الإنسان تابعا لشهوته . والشهوة عمياء لا تبصر . ومن هنا كان الأنانى فى ضلال وحيرة : لا يعرف طريق السلام والاطمئنان لنفسه ، بينما تجره غريزة الدفاع عن النفس إلى الخصومة والمقاتلة للآخرين . كما لا يعرف غيره من الأفراد فى الوجود معه ، أو لا يعترف بوجودهم ، كما يعترف بوجود ذاته . وبالتالى لا يعرف قيمة عليا فى علاقته بهذا الغير .. لا يعرف مودة ، ولا معاونة ، ولا رحمة بينه وبين الآخرين .

---

(٦١) آل عمران : ١٢٦.

.. والمؤمن بالله ينتظر أن يلقى من الذين لا يشاركونه الإيمان : عنتا ، ومشقة ، وقتالا خفياً أو صريحا . ينتظر ذلك منهم ، لأنهم لا يريدون أن يروا أحداً يحرك بينهم الإيمان بالقيم العليا فى علاقات الأفراد .. لا يريدون أن يكون هناك نقد مباشر أو غير مباشر لأسلوب حياتهم ، وهو ذلك الأسلوب الذى ينفر من المشاركة الوجدانية أو المشاركة العملية فى حياة الناس ، ويركز على السعى لمنافع الذات وحدها ، ولو على حساب حياة الآخرين ، فى أى جانب من جوانبها .

وإذ ينتظر المؤمن بالله المشقة والعنت والقتال فى حياته من الآخرين ضده ، فإن صبره وتحمله ، وعدم استسلامه للصعاب والأزمات هو الحل الوحيد لاجتيازه هذه الصعاب ، ثم لاحراز النصر الأخير على أعدائه ، مهما كان وضعه هو ، ومهما كانت المفارقة واضحة بين وضعه هو الذليل ، والضعيف ، ووضع الآخرين من القوة المادية والإمكانيات العديدة المتاحة لهم . لأن وضع أى إنسان ليس له ثبات ، وبالأخص وضع الملحدين . لأن عامل التفرقة بينهم قوى ، وهو عامل الأنانية والسعى وراء المصالح والمنافع المادية ، والحرص على حضورها فى حياتهم . والتنازع والتفرقة من معاول هدم التكتل والتماسك بين الأفراد ، وبالتالى من العوامل التى تحول قوة التجمع إلى ضعف ، وعزة القوى إلى ذلة .

وتاريخ الأنبياء فى قصص القرآن الكريم يركز على توضيح الأثر الإيجابى للإيمان القوى للرسول والذين آمنوا معه ، ليس فى تخطى العقبات فقط . وإنما فى بناء مجتمع يخرج من الضعف فى العدد والإمكانيات المادية إلى القوة المادية والمعنوية ، وفى نصر مبين لأصحاب القيم والمثل العليا فى الحياة الإنسانية على الماديين الذين يعيشون لأنفسهم وحدهم ، رغم الطاقات العديدة التى تكون متوفرة لديهم ، يوم أن كان أصحاب الإيمان قلة فى العدد والإمكانيات .

ويذكر القرآن من هذا القصص قول الله تعالى : « **وكأيّن من نبى قاتل معه ربيون كثير** (أى كثير من الأنبياء فى تاريخ الرسالة الإلهية قاتل معهم الألوف من الناس) **فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله** (أى فما ضعفوا

فى دعوتهم إلى الحق وفى تمسكهم به ، بسبب التحديات التى يواجههم بها أعداؤهم) **وما ضعفوا وما استكانوا** ، (وفى لقائهم مع الأعداء فى القتال . لم تبد عليهم أمارات الضعف ولم يخالج نفوسهم أمر الاستسلام للعدو إطلاقا ، وذلك بفضل تحملهم وصبرهم على مواجهة التحدى فى السلم ، وعلى مشقة القتال وعنفه فى ميدان الحرب) **والله يحب الصابرين** . (ومن أجل أن الصبر قوة وأنه نصف الإيمان ، يبلغ رضاء الله على المؤمنين الصابرين درجة الحب لهم . ولذا هو سبحانه حفىّ بوقايتهم من الهزيمة وبتوفيقهم إلى النصر) **وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** » (٦٢) .. (ومن دعاء هؤلاء المؤمنين يتضح أنهم لا يشركون الدنيا فى إيمانهم وفى قتالهم من أجل الإيمان . وإنما كان دعاؤهم خالصا لتثبيت أقدامهم فى ميدان القتال ، ولنصرهم على أعداء الحق وهم أعداؤهم ، مما يدل على أن عدم استسلامهم فى القتال ، والصعاب والأزمات فى وقت الحرب ، والسلم ، كان بسبب قوة إيمانهم مما دفعهم دائماً إلى الصبر والتحمل فالنصر والعزة) .

* * *

● **التطبيق العملى هو محك الايمان :**

.. كثير من الذين يعلنون ولاءهم ، ويعبرون عن إيمانهم يحترفون بما يعلنون به .. يبغون كسبا ماديا ، أو جاها ، **يتوسلون به إلى المتعة المادية** .

والمؤمن الحق إذا انتظر شيئا من إيمانه فى حياته فهو أن يقدم التضحية بالنفس ، والمال فى سبيل ما يؤمن به . ويجىء قول الله تعالى : « **انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون** » (٦٣) .. يجىء هذا القول مقننا لمقياس سليم يقاس به الإيمان الحق ، ويفصل به بينه وبين الاحتراف به .

---

(٦٢) آل عمران : ١٤٦ ، ١٤٧ (٦٣) الحجرات : ١٥

والجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال هو الأمر المرتقب من مؤمن بالله ورسوله ، لأنه ليس من السهل أن يسلك الإيمان بالله طريقه فى مجتمع مادى أو جاهلى ، دون مقاومة من زعمائه ، ودون أزمات وشدائد ، تواجه المؤمنين وقد تهزهم هزا عنيفا فى بعض الأحيان . فإن لم يكن المؤمن على استعداد نفسى لتقبل التعذيب والإرهاب ، وتقبل المحن فى ماله ، فإنه لا يستطيع مواجهة الطغيان .

والإيمان بالله إذن معادلة تساوى التضحية بكل عزيز على الإنسان . حتى إذا جاءت الموجة الطاغية فى وقت ما ضد الإيمان كان هناك ثبات لدى المؤمنين ، وكان هناك عزم وتصميم على قبول التحدى . وثبات المؤمن فى إيمانه هو عامل نصره ، وبخاصة عند التحدى والطغيان ضد ما يؤمن به . فالحياة البشرية لا يدوم فيها وضع واحد ، لأمر واحد . وإنما الشىء ـ كما يقال ـ إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، فالطغيان سيتراخى ويحل التسامح محله يوما ما . والتحدى سيضعف ، ثم يزول فى وقت لاحق حتما . وهنا الثابت على الإيمان يخرج من المحنة أكثر ما يكون صلابة وقوة . والثابت على إيمانه قد ضحى فقط ـ فى فترة الأزمة والشدة ـ مما يتعلق ببدنه ، إن عذب أو استشهد ، أو بماله إن صودر وأخذ منه ، أو بذله هو عن رضا نفسى فى الدفاع عن دين الله .

.. وجزاء المؤمن الثابت على إيمانه إذن ليس فى الدنيا ـ أى لا يرتبط بمتعة دنيوية ـ بل جزاؤه عند الله فى آخرته . أما الدنيا فقد تكون لكافر أكثر مما هى لمؤمن : « **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** » (٦٤) ..

وسعى المؤمن للآخرة داخل فيه ترقب الأزمات ومواجهة الطغيان . وهجرة المؤمن بدين الله ، فيها ابتلاء من الله لا يقل عن الابتلاء بالمعيشة فى المحن والشدائد ذاتها .

---

(٦٤) الاسراء : ١٨ ـ ٢١

أما محترفو الإيمان والإعلان عنه فلهم بريق يلمع ، ويغرى : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم » (٦٥) ..

ولكن فى واقع الأمر هم أعداء الإيمان : « كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون »(٦٦) أى هم أشباح لا خير فيهم كالأخشاب المسندة إلى الحائط التى لا تؤدى وظيفتها ، ويمتلك الجبن نفوسهم فيظنون من الخوف أنهم المقصودون عند كل حركة تقع فى محيط المجتمع .

محك الإيمان الصادق إذن هو التطبيق العملى له فى الحياة ، بالتضحية وإيثار الوقوف بجانب دين الله ، على المال والنفس ، والأجر عليه عند الله وحده .

والمحترف بالإيمان منافق مخادع ، يغرى بمنظره وحديثه ، وينفر بمخبره وجبنه وعلمه . والحاكم الموفق هو الذى لا يخدع بلحن القول ولا يغتر بظاهر الأمور .

* * *

● **التجاء الانسان الى الله عند المحنة ، والتولى عنه عند النعمة :**

تلك طبيعة الإنسان : يطغى عندما يستغنى .. ويذل عندما يحتاج : « كلا ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى » (٦٧) ..

« وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه (أى عائدين إليه بالتوبة) ثم إذا أذاقهم منه رحمة (أى نقلهم من جديد من ضرهم وفقرهم ومرضهم إلى الرخاء والصحة) إذا فريق منهم بربهم يشركون » (٦٨) .. (أى ينكرون وحدانيته ويسلكون معه مسلك الوثنيين الماديين فى العبادة) .. تلك خصيصة للطبيعة الإنسانية لا يخرج عنها إلا مؤمن بالله ، يعرفه فى الضراء والسراء ولا يشرك بربه أحدا .

إن الغرور بالأموال وبالإمكانيات العديدة وبالأولاد والقوة المادية

---

(٦٥) المنافقون : ٤
(٦٦) المنافقون : ٤
(٦٧) العلق : ٦ ، ٧
(٦٨) الروم : ٣٣

obeikandi.com

وبالجاه والسلطة والنفوذ يجعل من الإنسان إلها .. أو شبه إله .. يجعل منه غير خاضع وغير عابد إلا لإمكانياته وقوته المادية وحدها ، وهنا يستعلى على الآخرين ، ويرى أن مسلكه فى الحياة هو الطريق الصحيح الذى يجب أن يتبع ، وإن خالف هداية الله التى راعى فيها اعتبار الناس جميعاً لا فرق بين كبير وصغير .. وقوى وضعيف .

وبقدر ما يرتفع المغرور بقدرته وطاقاته التى تمثل نعم الله عليه .. وبقدر ما يستعلى على الناس بسلطانه وجاهه : بقدر ما يسقط ويذل ، ويعلن عن حاجته ومذلته .. وبقدر ما ينزوى فى ركن المحنة والشدائد يدعو الله ليخرجه من محنته وشدته . فإذا رفع الله عنه المحنة لا يمنعه من الطغيان من جديد إلا إيمانه بالله ، إن آمن به .

ولذا : تدعو رسالة الله الناس أولا إلى الإيمان بشىء واحد : وهو أن النعم التى هم فيها هى من الله وحده : « **وما بكم من نعمة فمن الله** » (٦٩) . فإذا استقر فى نفس الإنسان : أن المال ، والصحة ، والجاه ، والسلطة ، والقدرة هى أمور ليست ذاتية ، أى ليست لذات الإنسان ، وإنما من فضل الله على الإنسان : كان موقفه منها موقف المعترف بهذا الفضل ، وكان تصرفه فيها طبقا لما تنصح به هذه الرسالة . وهى لا تنصح إلا بالاستقامة وعدم الغرور والطغيان ، أى هى لا تنصح إلا بتوجيهها لصالح الناس جميعاً ، وليس للاعتداء أو لظلم أحد بها .

أما طبيعة الإنسان فى بعدها عن هذا الإيمان فكما وصفتها بقية الآية فى قول الله تعالى : « **ثم إذا مسكم الضر فاليه تجأرون** . (أى ترفعون أصواتكم بالنداء والشكوى) **ثم إذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون** » (٧٠) .. (إذ أنهم يسيئون من جديد فى موقفهم من النعم التى عادت إليهم بفضل الله ورفعه الضر عنهم) .

والإيمان بالله إذن لا تعود منفعته على الله . فهو الغنى وفوق المنافع فى حياة الإنسان . وإنما منفعته تعود على المؤمن وعلى مجتمع المؤمنين بالله أولا

---

(٦٩) النحل : ٥٣

(٧٠) النحل : ٥٣ ، ٥٤

وأخيراً : تعود على المؤمن لأنه يتقى به الطغيان والمذلة معاً .. طغيان المغرور عند القوة ، ومذلة المهين عندما تزول أسباب صلفه وكبريائه . وتعود على المجتمع لأنه يجنبه عوامل السقوط والتغيير ، ويبقى على تماسكه وقوته ، التى تقوم على الاعتبار البشرى وحده بين الأفراد جميعاً .

نعم الله كثيرة . وحسن استخدامها أدعى لبقائها .. وسوء استعمالها يؤدى إلى الغرور فالسقوط فى هاوية الحسرة والندم . وهداية الله هى الطريق للموقف السليم إزاءها .

* * *

● **المستضعفون فى الأرض يؤاخذون على استسلامهم للطغيان :**

الطغيان لا يكون عادة إلا فى مجتمع مادى يشرك بالله أو يعبد غير الله من الأوثان المادية . والطغيان ظاهرة تلازم الحرص على الزعامة فى المجتمع ، والغرور بالقوة المادية : قوة المال ، أو العصبية فى القربى أو فى ترابط المنفعة .

والمجتمع الذى يقوم فيه الطغيان ينقسم عادة إلى مجموعتين : مجموعة المستكبرين ، أو المستعلين ، ومجموعة المستضعفين ، أو التابعين ، ومجموعة المستضعفين تحاول أن تخلى سبيل نفسها من مقاومة الطغيان ، أو من أنها تابعة للمستكبرين وهم الزعماء فى المجتمع ، بأنها مكرهة أو مغلوبة على أمرها .

وكذلك شأنها فى التبرير إذا ما دعيت إلى السلام وإلى الروابط الإنسانية فى العلاقات بين الأفراد ، وطرح التبعية إلى الطغيان وعدم السير فى طريق الطغاة المستعلين : « **ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم** (والذين ظلموا أنفسهم هنا عندما تحضر الملائكة وفاتهم هم الذين قبلوا طريق المستكبرين من زعماء المجتمع ، وهم الذين كفروا بالله واليوم الآخر ، حرصا على زعامتهم ، وبقائهم أصحاب كلمة) **قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض** ، (أى عندما تسأل الملائكة هؤلاء المستضعفين عن السبب الذى من أجله اتبعوا زعماءهم : فى الكفر والإعراض عن رسالة

الله : يجيبون بأنهم كانوا مستضعفين ولا حول ولا قوة لهم فى مواجهة قوة الطغيان السائدة بينهم ، وهذه الإجابة لا تبرئهم من المسئولية الشخصية . إذ كان أمامهم طريق آخر مفتوح ، وهو طريق الهجرة إلى الخارج .. كان من واجبهم نحو أنفسهم أن يؤمنوا بالله وبرسالته عندما تعرض عليهم ، وأن يعرضوا عن تهديد زعمائهم ثم ينقذوا أنفسهم ولو لفترة مؤقتة بالهجرة إلى غير وطنهم) **قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ، (ولذا كان رد الملائكة عليهم منكرين عليهم تبريرهم : أن أرض الله واسعة ، وكان يمكن أن تهاجروا فيها وأن تختفوا من مكان إلى مكان ولذا كان العقاب وارداً لا محالة ، وكان المصير السيء إلى جهنم حتما) **فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيراً** » (٧١) ..

فالمستضعفون بقبولهم الضعف والاستكانة للزعماء الطغاة فرطوا فى حق أنفسهم ، وأعطوا الفرصة للمستكبرين فى أن تطول قيادتهم ، وبالتالى يطول ظلمهم وطغيانهم .

.. والهجرة كانت البديل عن قبول الضعف ورفض دعوة الإنسانية التى أتت بها رسالة الله . فلم يكن هناك إذن اضطرار لقبول التبعية . فضلا عن أن الهجرة كملجأ للخلاص من الظلم والطغيان والابتعاد عن مصدره فإنها تتيح الفرصة للمهاجر فى الحصول على الرزق ، وربما فى ظروف سهلة ميسرة : « **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة** » (٧٢) ..

وهكذا « الحرية » التى كرم بها الله الإنسان لا ينبغى أن يقيدها ظلم ظالم ولا طغيان طاغ . وإنما يجب ممارستها فى كل الأوضاع : فى الشدة . والرخاء . وإذا كان الله وهو الخالق الرازق لم يربط رزقه للناس بإيمان وبكفر به ، فليست هناك فى الوجود قوة تخيف الإنسان وترهبه بسبب الإيمان .

إن الإنسان هو الذى يرسم لنفسه شبح الخوف فى الحياة . فالظالم أو الطاغى قد يكون فى نفسه أكثر جبنا وضعفاً . وطالما الله هو الوكيل للمؤمن فنعم السند ، وهو حصن الأمان .

---

(٧١) النساء : ٩٧ (٧٢) النساء : ١٠٠

وهكذا المستضعفون فى المجتمع ملومون ومسئولون أمام الله عن قبولهم الضعف والتبعية لظلم زعمائهم وطغيانهم فى مجتمعهم . إذ ليس المطلوب منهم أن يقاوموا حتما ، وجها لوجه ، وإنما بإمكانهم لتفادى الطغيان أن يهاجروا بإيمانهم فى أرض الله وهى رحبة ، وفيها الوقاية من السوء .

* * *

● **الله يمهل .. ولا يهمل :**

نقرأ قول الله تعالى : « **ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون** » (٧٣) . فنقف من هذه الآية الكريمة على أن الله جلت قدرته لا يهمل شأن الظالمين إذا لم يجازهم فوراً . والظالمون هنا هم أولئكم الذين أعرضوا عن رسالة الله وكفروا بها .. هم أولئكم الأفراد الذين ظلموا أنفسهم فى الدرجة الأولى ، بعدم اتباعهم لهداية الله ، فضلوا وأضلوا غيرهم . وإذا كان الله لا يهمل شأنهم ولا يغفل عن جرمهم ، فإنه فقط يؤخر عقابهم إلى يوم الجزاء العام : « **انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** » (٧٤) .. فيعطيهم الفرصة فى بقية حياتهم الدنيوية ليراجعوا ظلم أنفسهم بعدم سلوكهم الطريق المستقيم ، وهو طريق الهداية الإلهية . فإذا استمروا فى غيهم وضلالهم وفوتوا فرصة المراجعة فى حياتهم ، زادوا من ظلم أنفسهم ، وازدادوا من أجل ذلك إثما ، وتضاعف جزاؤهم :« **ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لانفسهم ، انما نملى لهم ليزدادوا اثما ، ولهم عذاب مهين** » (٧٥) .. أى لا يظن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والإعراض عن رسالة الله : أن إرجاء جزائهم إلى يوم الآخرة جاء نتيجة الانصراف عن أمرهم ، وغض النظر عن حسابهم ، وفى ذلك عندئذ مصلحة لهم ؟ . وإنما يجب أن يعلموا : أن هذا الإرجاء إن تجاوزه ، وهم فى غيهم ، ولم يفيدوا منه فى مراجعة وضعهم من رسالة الله ، فإنه يكون لهم مصدر مضاعفة لجريمتهم ، وبالتالى لجزائهم .

فالله سبحانه الذى لم يشأ أن يجعل نعمته على الناس مرتبطة بالإيمان به . بل هو يعطى الكافر والمؤمن على السواء . وقد يعطى الكافر منها أكثر

---

(٧٣) ابراهيم : ٤٢ (٧٤) أبراهيم : ٤٢

(٧٥) آل عمران : ١٧٨

مما يعطى المؤمن : « **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض** » (٧٦) .. والله سبحانه الذى ترك للإنسان حريته ومشيئته فى أن يقبل الإيمان به أو يرفضه : « **وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » (٧٧) .. هو ذاته : المولى جل جلاله الذى شاء رحمة منه للإنسان إذا تردى فى هاوية الضلال ووقع تحت تأثير شهوته وهواه فكفر بالله وبنعمته عليه : أن يعطيه الفرصة مرة أخرى ليخرج مما تردى فيه ، فلم يجازه فوراً على ترديه وعلى ضلاله ، وأرجأ محاسبته إلى اليوم الذى لا يتأخر عنه حساب ، وهو يوم الجزاء .

ومما ينسجم مع منطق الإنسان : أن الظالم لنفسه بالكفر بالله والإعراض عن رسالته ، إذا أضاع هذه الفرصة ــ وهى فرصة إرجاء عقابه من الله ــ واستمر فى إعراضه فإنه يكون قد جلب على نفسه مضاعفة الإثم والعذاب معاً . وعندئذ لم يكن إرجاء عقابه فى مصلحته : « **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، انما نملى لهم ليزدادوا اثما ، ولهم عذاب مهين** » (٧٨) .

.. هذا نوع من الظالمين . ولكن هناك ظالمون آخرون . وهم الذين تجاوز ظلمهم حدود أنفسهم ، وامتد طغيانهم واعتداؤهم على غيرهم فى مجتمعهم ، وأرهقوا من معهم فى المجتمع بالإجحاف فى المعاملة ، والتسلط عليهم ، بسبب الحرص على زعامتهم ، أو بسبب قوتهم فى المال أو العصبية .. هؤلاء الظالمون لا يرجىء الله جزاءهم إلى يوم الجزاء العام . وإنما يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ويقوض زعامتهم لتحل محلها زعامة تؤمن به . والتاريخ يتحدث مثلا عن زعماء ثمود إذ منعوا الأكثرية الساحقة من أتباعهم : أن يشاركوهم فى الماء والمراعى . فأرسل الله لهم رسولهم صالح يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وإلى اتباع العدل بينهم وبين أتباعهم فيما هو مباح للجميع ، وهو الماء والمرعى ، وترك ناقة له ، ورجا أن يكون لها نصيب معلوم مما هو مباح للكل ، كاختبار لإيمانهم أو لكفرهم برسالته : « **ويا قوم هذه ناقة الله** (أى ليست مملوكة لأحد)

---

(٧٦) الاسراء : ٢٠ ، ٢١
(٧٧) الكهف : ٢٩
(٧٨) آل عمران : ١٧٨

لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . (أى عذاب لا يؤخر إلى يوم الجزاء) فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا (أى بإهلاك قوم ثمود) نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ، ان ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا (وهم الزعماء فى ثمود أبوا أن يمارسوا العدل بينهم وبين أتباعهم فى الماء والمرعى) الصيحة (وهى الزلزال) فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، (كأن لم يوجدوا هناك إطلاقا) ألا ان ثموداً كفروا ربهم ، ألا بعداً لثمود » (٧٩) ..

وإذا كانت ثمود مجتمعاً زراعيا تلاعب فيه الزعماء بنعمة الله فى الزراعة والحيوان فهناك مجتمع « مدين » كان مجتمعاً رأسماليا . استغل فيه المال أصحاب الزعامة وتلاعبوا بحرية الملكية فى المال وأباحوا لأنفسهم فى معاملة غيرهم ما يعد ظلما لهم وافتئاتا على حقهم فى الحياة فجاء رسولهم شعيب يدعوهم إلى العدل فى المعاملات المالية والتجارية ، بجانب دعوته لهم إلى وحدة الألوهية ، فعابوا عليه دعوته واستهزأوا به . فقوض الله عليهم ديارهم كأن لم يغنوا بالأمس فيها :

« والى مدين أخاهم شعيبا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير (أى من غير نقص فى المكيال والميزان . فأنتم أصحاب ثراء) وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط » (٨٠)

فكان جوابهم : « قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء » (٨١) .. (أى أننا أحرار فى أموالنا نتصرف فيها كما نشاء) . فلهم أن ينقصوا فى الكيل والميزان . وإن أضر المتعاملين معهم ، طالما يجلب ذلك عليهم وفرة فى الربح . وكان جزاء الله لأهل مدين جزاء فوريا للحيلولة دون استمرار الظلم بسبب الطغيان بالمال :

« ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود » (٨٢) .. وهكذا الظلم العام لا يرجىء الله جزاءه إلى يوم الجزاء .

* * *

---

(٧٩) هود : ٦٤ — ٦٨

(٨٠) هود : ٨٤

(٨١) هود : ٨٧

(٨٢) هود : ٩٤ ، ٩٥

obeikandi.com